جامعة الأزهر الشريف
كلية اللغة العربية بالقاهرة
قسم البلاغة والنقد

حركة المعنى فى سورة الفجر

دراسة بلاغية

دكتور
إبراهيم صلاح الهدهد

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ / ١٩٩٨م

دار الاتحاد التعاونى للطباعة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
١٠٤٦٣ / ٩٨
الطبعة الأولى

دار الاتحاد التعاونى للطباعة
ت ٢٩٥٦٨١٠

مقـــدمة

اللهم إنى أتوجه إليك بالحمد والثناء أن أنزلت القرآن عربيا ، وأن جعلتنى مسلما عربيا ، وأن هديتنى إلى معايشة أسراره ، وفقه إعجازه .

اللهم إنى أضرع إليك أن تغفر زلاتى فى فقه كتابك ، وأن تستر عوراتى فى تأمل أحوال بيانه ، وأن ترزقنى التأمل الحق ، والتدبر الصدق ، وأن تهدينى فقه الصواب ، كما أضرع إليك أن تقيل هذه الأمة عثراتها ، وأن تزيل غفلتها ، وتكشف غمتها وبعد .

فهذا بحث بلاغى فى سورة الفجر ، قصدت إليها لقصرها ؛ عونا لى فى خوض لجة مثل هذا النوع من البحوث البلاغية فى الذكر الحكيم ، وليس هذا البحث تفسيرا للسورة ، ولا تحليلا بلاغيا لأساليبها ، وإنما هو غير ذلك ؛ وأبادر فأقر أنه بحث كثير المزالق ، جم العورات ، واسع الخروق ، ذكرت ذلك بين يدى البحث حتى أعذر ،؛حاولت فيه أن أكتب ما وسعتنى الكتابة ، وأن أبذل ما وسعنى الجهد بغية الوصول إلى الصواب ، أو أهدى غيرى إليه إن لم أوفق فى ذلك ، فلولا الخطأ ما كتب الناس الصواب .

وقد جاءت كتابتى فى حركة المعنى بعد معايشة دائبة لفقه كلام الله ـ عز وعلا ـ فقد كتبت فى التخصص « أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم » وكتبت فى العالمية من علاقة المطالع بالمقاصد فى القرآن الكريم ـ دراسة بلاغية ـ نظرية ـ تطبيقية ، وكتبت فى أسلوب الترجى « الترجى فى آى من الذكر الحكيم » واستقصيت مواقع لفظة واحدة فى الذكر الحكيم مستشرفا بذلك أثر السياق فى اصطفاء الكلمات ، كما استشرفت أثر السياق فى اصطفاء الأساليب فى بحث الترجى ، وهذه اللفظة هى «وراء ـ مواضعها وأسرارها فى نظم القرآن الكريم »

وبعد هذه الدراسات اطمأن قلبى ، ووثق الاعتقاد عندى أن السورة القرآنية لها غرض واحد تتظاهر تراكيبها عليه ، ولها معنى واحد تهدف آياتها إليه ، كما استقر لدى أن التعرف على المعنى الذى هو قطب آى السورة ، أمر دقيق المسلك ، لطيف المأخذ لا يتأتى إلا بعد صبر دائب ، وجهد متواصل ، ومعايشة دائمة . وفهم متأن لكلام السلف ـ رضوان الله عليهم ، وتوفيق من قبل كل ذلك .

حين التعرف على معنى السورة ومقصدها ، لا بد أن تكون السورة أمام عينيك ، والكتاب العزيز كله مثل صفحة معروضة فى عقلك ، لأن أغراض السور القرآنية تشتبه وتتقارب فى بعض منها إلى حد الإلباس ، وتحديدك المعنى والهدف هو عمود هذه الدراسة ؛ لذا يجب التثبت والتروى فى تحديد غرض السورة . وهناك بعض الخطوات التى حاولنا وضعها فى الاهتداء إلى الغرض فى السورة القرآنية . وهى فى صدر هذا البحث .

بعد تحديد المعنى تحاول تلمس الخصائص الأسلوبية التى وردت عليها آى السورة ، والتى جعلت تراكيبها ألصق بهدف السورة ، وأعلق بمقصدها ، وهذا يقتضيك التثبت المطمئن ، والتأمل الواعى ، والتدبر المتأنى ، وخاصة حين تجد فى السورة ـ محل بحثك ومطمح نظرك ـ حلقة من قصص النبيين ، وهذا مما يكثر وروده فتتداح دائرة النظر عندك ، وتنفسح دائرة التأمل أمامك ، ويستدعى التأمل كثيرا من المراجع وكذلك فى الأحاديث التى يكثر دورانها فى الذكر الحكيم كظواهر تدمير الكون ، ومواقف الحساب وغير ذلك مما سيعرض لك .

ومن بعد ذلك تتأمل علاقات تجاور الآيات ، وعلائق أنسابها ، وأثر ذلك فى التراكيب ، وفى اصطفاء الأساليب ، بحيث تنص على الخصائص الأسلوبية التى تربط الآيات بغرض السورة وهدفها ، نصا يمنع ما يقاربها من

الآيات فى السور الأخرى من مجيئها فى هذا السياق ـ محل بحثك .

وبعد فقه التراكيب ترقب حركة هذا المعنى ، متى انبعثت ، ومتى كانت ضوءا خافتا ، ومتى أشرقت ، ومتى أضاءت كالشمس فى ضحاها ، متى سارت سيرا حثيثا ومتى تحدرت ، ومتى حط المعنى رحاله ، أنت فى كل ذلك تحاول التسلل إلى مسارب المعنى من خلال التراكيب فهى معبرك ومسلكك إلى فقه حركة المعنى .

وهذا النمط من الدرس البلاغى الصابر للسورة القرآنية ، يقيم البرهان الساطع والآية القاهرة على الإعجاز البلاغى للذكر الحكيم ، ويكشف أن السياق ذو أثر بالغ فى اصطفاء الألفاظ ، واصطفاء التراكيب ، ويبرهن أنه من المحال بلاغة وضع آية فى غير موضعها من الذكر الحكيم ، بما لا يوجد فى بيان البشر شبيه له ولا مقارب .

على أنك فى مراقبتك حركة المعنى فى السورة كمن يرقب مسرى النفس فى النفس وكمن يحاول إبصار الماء فى شجرة تتشابك أغصانها ، وتتشعب جذورها . وكلاهما غيب عنك ، إلا أن الأغصان والأوراق والجذور تهدى إلى حركة الماء ، وكذلك الجوارح تهدى إلى حركة النفس ، والأمر من الصعوبة كما ترى ومن الخطر كما تبصر ، وبحث مثل هذا كثير الخطأ ، قليل الصواب.

ومن أعظم دوافعى إلى خوض هذا الحمى ما كتبه شيخى الجليل الدكتور محمد أبو موسى فى مقدمة كتابه «من أسرار التعبير القرآنى» فى تضاعيف حديثه عن وجوه كثيرة من بلاغة القرآن غير المدروسة ، وكان مما ذكره باب علاقة المطالع بالمقاصد فى القرآن الكريم ، وقد عرض لما كتبت فى هذا الموضوع ، وذكر أن علاقة المطالع بالمقاصد هى أصل باب البحث البلاغى فى حركة المعنى . يقول : «ومن وجوه بلاغة القرآن غير المدروسة ـ كما ينبغى ـ

حركة المعنى داخل السورة ، ومراقبة نموه وامتداده ، وذهابه وارتداده ، وهذا باب من أخفى أبواب البلاغة وأغمضها ، ولا يصغره عندك ما تراه من خوض العامة والخاصة فيه ، وقولهم على البديهة ، وإصابتهم أحيانا ، لأن هذا من تيسير الله لكلامه - سبحانه - قرب منه قدرا من المعانى ، كأنه مشترك بين الناس ، ثم بعد ذلك تأتى المرتبة مرتبة بعد مرتبة ، حتى تكون هناك مرتبة فى الفهم خاصة بالراسخين من أهل العلم ، وهذا الجزء المضنون به على غير أهله، هو ما يتجه إليه العمل والنظر ، وتتوخاه البحوث ، فإن أصابت ، وإلا قاربت ، أو مهدت الطريق لسالك يصيب أو يقارب إلى أن قال :واعلم أن علاقة المطالع بالمقاصد هى أصل هذا الباب » (٢٥ : ٢٧) .

وقد وجدت فى كلامه الحاث والدافع ، فقد قطع كل عذر ، وسد كل ذريعة ، فاجعلنى اللهم ممن أصاب أو قارب ، أو مهد ، واغفر لى ذنبى واسترعيبى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته .

د. إبراهيم صلاح الهدهد

حركة المعنى

مفهومها - علاقتها بالدرس البلاغى

المعنى هو الروح التى تسرى فى القصيدة أو المقطوعة الأدبية ، ومن قبل كل ذلك فى السورة القرآنية ، فلكل قصيدة أو رسالة أو مقطوعة مقصد وهدف تسعى القصيدة بتراكيبها إليه ، وتتظاهر الجمل ببنائها وعلائقها فى الكشف عن هذا الغرض ، فيسرى المعنى فى الكلام مسرى النفس فى النفس كما قال الأئمة، وتشى التراكيب بأحوال كاتبيها وهواجسهم ، يتحسس الذائقون هذه الأحوال فى الصياغة .

وكلما وشرف الكلام ونبل وعلا استغلقت أسراره ، فلم تنكشف لكل أحد إلا لأهل البصر بالكلام الذين يبحثون عن مراد المتكلم ، وما خالط هذا المراد من أحوال النفس ، من أجل هذا كان التعرف على حقيقة المعنى من تراكيب الكلام من الخطر بمكان .

هذا عن خطر التعرف على المراد ، وأخطر منه أن تبصر المقصد وكيف قذف به الشاعر أو الأديب فى صدر كلامه ، ثم تهدر الكلام من بعد ذلك شرحا للمقصد أو تفصيلا له ، أو إثباتا له ، وكيف رتب البيان عن غرضه ومقصده ، وفى أى المواضع كان أظهر ، وفى أيها كان أخفى وأدق أنت فى ذلك كالمراقب الحريص ، أو الصائد الماهر الذى برز فى تصيد الخفى من الأشياء ، والشعراء يبرعون فى الكشف عن أحاسيسهم ولا يبرز تمام أحاسيسهم مما وشى به كلامهم إلا يد صناع حذقت فنون الكلام ، وخبرت خفاياه ، وعرفت مداخله ومخارجه .

والمعنى فى القصيدة الجيدة كالماء فى العود الأخضر ، أو الشجرة

الناضرة. فلا يقبل النابهون من الشعراء أن يكون فى أغصانهم أو أشجارهم - التى هى قصائدهم - غصن يابس أو ورقة ساقطة ، أو فرع ناب أو عود متخاصم مع الشجرة ، وإنما تعض نفوسهم على ألا تفرغ أى من أجزاء أغصانهم أو أشجارهم - التى هى قصائدهم كما ذكرنا - من الماء الذى هو الهدف والمعنى - والذى يدب الحياة فى كل أنحاء القصيدة .

والأمر من الخطر - كما ترى - وليس التعرف عليه متأتيا لكل ناظر فى الكلام . لأن الشاعر يأبى أن تقرأ أحاسيسه وأنت غافل لاه ، لأن شعره جزء من خلاصة نفسه ، وقد خطته يداه من بعد مشقة وعناء ، ولا يغيب عنك قول الفرزدق تأتى على ساعة ونزع ضرس أهون على من نظم بيت ولا ما يحكى من أن بعضهم إذا ما تأبى عليه الخاطر ركب بعيره وضرب فى الصحراء فهو المتيقظ عندما ينام الناس ، وهو المتعب عندما يستريح الخلق .

قلت إن حركة المعنى ومراقبته فى كلام النابهين من الشعراء والأدباء أمر ذو خطر شديد ، وأنت الخبير أن من أعظم العيب أن ترى بعض الأبيات فى بعض القصائد لا صلة لها بما هدف الشاعر إليه إذ تراه أنت كالشئ الشائه فى المنظر الجميل فيطفئ نور القصيدة ، ويعكر صفو مائها . الذى هو أصل الحياة فيها .

وكل قصيدة خلت من وحدة المعنى والمقصد ، خلت الحياة منها وليست بشئ عند النقاد ، لأنك لو جمعت جوارح من أجساد متعددة لتجعلها جسداً واحداً ، كنت من العابثين ، ونفخت فى فحم ، وضربت على حديد بارد كما قال علماؤنا .

هذا خطر البحث فى كلام الناس ، وإنما ذكرته بين يدى ما أريد قوله إلقاء للعذر بين يدى البحث فى كلام الله - عز وعلا . وطبا للنصح على أن ما

ذكرته هو محاولة لشرح كلام الأئمة فى الكشف عن حركة المعنى فى السورة القرآنية ، ووصف آيات السورة ومكان المعنى فى كل منها ، فالسورة عند الأئمة هى شجرة نضيرة ، ومعنى هذا أن المعنى من السورة كالماء من الشجرة، ثم إن السورة فى الذكر الحكيم لها جذور فى الكتاب العزيز كله فيحتاج التعرف على حركة المعنى إلى إبصار الجذور التى هى أصل هذه الشجرة وإبصار حركة الماء الذى فى هذه الجذور ، وهو باب دونه خرط القتاد كما قال أئمتنا ، أما البحث عن حركة هذا المعنى فى السورة الواحدة ، فهو باب عصى غير أنه ممكن ـ إن شاء الله ـ إذا مهد له العلماء وتدرب على الكتابة فيه أهل العلم والبصر ، فتكون كتاباتهم زاداً لأبنائهم من العلماء ، على أنه باب الخطأ فيه أكثر من الصواب ، وإنما يجب ألا نخشى الخطأ حتى نهتدى إلى الصواب .

فالعلائق بين السورة وأخواتها تشبه علائق جذور أشجار الحديقة الواحدة، والعلائق بين الآيات فى السورة الواحدة تشبه علائق الأغصان والأوراق بالشجرة ، ثم إن المقصد أو المعنى هو الماء الذى يسرى فى الشجرة وأغصانها وأوراقها ، ثم إن التراكيب وبناء الجمل هى المعبر الذى يهدى إلى هذا الماء وحركته والكشف عن منزلة كل آية وكلمة من هذا المعنى .

هذا ما حاولت تفهمه فى كلام أهل العلم ، وإليك كلامهم فى هذا الأمر لتزداد بصرا ، ذكر البقاعى ـ رحمه الله ـ أن الله جعل الكتاب العزيز «متعانق المقاطع والمطالع ، وأنزله رياضا محكمة المذاهب والمراجع[1] » ، وأن « السورة كالشجرة النضيرة العالية والدوحة البهيجة الأنيقة الخالبة ، المزينة بأنواع الزينة ، المنظومة بعد أنيق الورق بأفنان الدرر ، وأفنانها منعطفة إلى تلك المقاطع كالدوائر ، وكل دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها ، وشعبة ملتحمة

(١) نظم الدرر ٢١/٢٤٨ .

بما بعدها ، وآخر السورة قد واصل أولها ، كما لاحم انتهاؤها ما بعدها ، وعانق ابتداؤها ما قبلها ، فصارت كل سورة دائرة كبرى مشتملة على دوائر الآيات الغر البديعة النظم ، العجيبة الضم ، بلين تعاطف أفنانها ، وحسن تواصل ثمارها وأغصانها ؛ ولأجل اختلاف مقاصد السور تتغير نظوم القصص وألفاظها بحسب الأسلوب المفيد للدلالة على ذلك القصد »[1].

وهو كلام كاشف عن تشابك سور الكتاب العزيز ، وتشابك آى السورة الواحدة فى التظاهر على المقصد الواحد ، وأن المقاصد تظهر فى الأبنية والتراكيب وترتيب الآيات ، فقد يقع الاختلاف فى ترتيب قصة ما فى سورة ما تلاؤما مع الغرض ، وتناسبا مع حركة المعنى فى السورة ، وقل مثل ذلك فى التراكيب وفى الألفاظ . ومن أجل صعوبة هذا الباب كان القول فيه عزيزا .

الدرس البلاغى هو أداة هذا الباب فمن أجل المعنى والمقصد تختلف أحوال التراكيب ، والتعرف على هذه الأحوال وأسرارها يهدى إلى المعنى ، ويقف الباحث على حركته - فتأمل التراكيب واستكشاف أسرارها هو أصل هذا الباب.

وقد عد العلماء النظر فى تركيب كل جملة بمفردها والوقوف على أسرارها طريقا للإعجاز ، وعدوا الوقوف عليها كذلك مع أختها بالنظر الى الترتيب طريقا آخر للإعجاز .

قال البقاعى - بعد بيان خطر علم المناسبات - وهذا يكشف أن للإعجاز طريقين «أحدهما : نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب ، والثانى : نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب ، والأول أقرب تناولا وأسهل ذوقا ، فإن

(١) مصاعد النظر ١/١٥١ ، ١٥٢ .

كل من سمع القرآن من ذكى وغبى يهتز لمعانيه ، وتحصل له عند سماعه روعة بنشاط ، ورهبة مع انبساط لا تحصل عند سماع غيره ، وكلما دقق النظر فى المعنى عظم عنده موقع الإعجاز ، ثم إذا عبر الفطن من ذلك إلى تأمل ربط كل جملة بما تلته ، وما تلاها خفى عليه وجه ذلك ، ورأى أن الجمل متباعدة الأغراض متنائية المقاصد .فظن أنها متنافرة فحصل له من القبض والكرب أضعاف ما كان حصل له بالسماع من الهز والبسط ، ربما شككه ذلك بكثير ، وزلزل إيمانه ، وزحزح إيقانه ، وربما وقف مكيس من أذكياء المخالفين عن الدخول فى هذا الدين بعد ما وضحت لديه دلائله وبرزت له من جمالها دقائقه» (١).

لا بد إذن من سلك واحد ينتظم آيات السورة الواحدة ، وتسعى آيات السورة كلها نحو هذا المقصد وذلك المعنى على نسيج متقن ، وترتيب محكم وتأمل أسرار التراكيب وأحوالها هو المعبر إلى ذلك .

وأظهر من كل ذلك فى بيان الطريق إلى الكشف عن حركة المعنى ، والوقوف على مراقبة امتداده ، هو ما ذكره العلامه أبو الفضل المشدالى المغربى فيما نقل عنه البقاعى - رحمه الله - « الأمر الكلى المفيد لعرفان مناسبات الآيات فى جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذى سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر الى مراتب تلك المقدمات فى القرب والبعد من المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام فى المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له ، التى تقتضى البلاغة شفاء العليل ، بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها ، فهذا هو الأمر الكلى المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، وإذا فعلته

(١) نظم الدرر ١/ ٧ .

تبين لك - إن شاء الله - وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية فى كل سورة ، والله الهادى[1] »

طرائق التعرف على المعنى :

نبه شيخنا الدكتور أبو موسى إلى أن علاقة المطلع بالمقصد فى السورة هو أصل هذا الباب[2]، ومن الطرائق التى يمكن التعرف على المعنى باتباعها ما يلى :

أولا : حصر الألفاظ التى وقعت فى السورة ولم تقع فى سواها ، وتأمل معناها وغالبا ما تكون هذه الألفاظ هى المعالم الدالة على توزع المعنى فى السورة .

ثانيا : حصر الموضوعات التى وقعت فى السورة ولم تقع فى سواها واستكشاف علاقتها بالهدف والمقصد .

ثالثا : النظر فيما وقع فى السورة من قصص النبيين - إن وجد - ومناظرته بما يقاربه فى الذكر الحكيم كله . وقل مثل ذلك فى الموضوعات المشتركة .

رابعاً : تأمل تراكيب المطلع ، فإن المطلع يجمل المقصد الذى تتظاهرعليه تراكيب السورة ، والبديع أنك ترى فى كثير من السور أن ما جاء عمدة فى تراكيب المطلع جاء عمدة فى السورة ، وأن ما جاء تابعا فى المطلع وقع كذلك فى السورة على أنا قد بينا هذا فى دراسة أخرى ، وانتهينا إلى أن تحديد المطلع قائم على إبصار الجملة النحوية وتوابعها فى صدر السورة [3].

---

(١) نظم الدرر ١١/١ .

(٢) أنظر من أسرار التعبير القرآنى ص٢٧ .

(٣) انظر بحثنا للدكتوراه بعنوان علاقة المطالع بالمقاصد فى القرآن الكريم - دراسة بلاغية نظرية تطبيقية الباب الخامس ص٥٣٧ مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة .

خامساً : تأمل كلام أهل العلم فى المناسبات بين الآيات وبين السور ، وهو علم عزيز ، كما ذكر ابن الزبير الثقفى[1] رحمه الله ـ فقد قال : «لم أر فى هذا الضرب الخاص ـ يعنى علم المناسبة ـ شيئا لمن تقدم وغير ، وإنما بدر لبعضهم توجيه ارتباط آيات فى مواضع مفترقات ، وذلك فى الباب أوضح ، ومجال الكلام فيه أفسح وأسرح . وأما تعلق السور على ما ترتب فى الإمام ـ يقصد مصحف عثمان ـ واتفق عليه الصحابة الأعلام فمما لم يتعرض له فيما أعلم ، ولا قرع أحد هذا الباب ممن تأخر أو تقدم » [2].

---

(١) ابن الزبير الثقفى : هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير ، عرف بنسبته إلى جده الأول الزبيرمن علماء الأندلس ت سنة ٧٠٨ هـ.

(٢) البرهان فى تناسب سور القرآن ص٧٢ .

النظرة الأولى فى سورة الفجر

حين ينظر العجل فى سورة الفجر يرى عند باده النظر أنها تناولت أغراضا متعددة ، وموضوعات متنوعة على قصرها : ففيها قسم يلقاك فى أولها ، ثم حديث عن الأمم الغابرة من عاد وثمود وفرعون ، ثم حديث عن عقاب هذه الأمم ، ثم تقسيم الإنسان حال الابتلاء ، وحال الإنعام ، ثم الحديث عن مساوئ الإنسان ، ثم حديث عن القيامة وعن يوم الحساب ، ثم الحديث عن أهل الجنة وعن أهل النار .

أنت عند النظرة العجلى - كما قلت - تتوهم أنها موضوعات متعددة وأغراض شتى ، وربما يعينك على ذلك وجهة نظر بعض أهل العلم فى اشتمال السورة القرآنية على أغراض شتى ، ومؤداها أن السورة تشتمل على عدة أغراض ، لأنه لا يتأتى لكل مؤمن أن يقرأ القرآن كله ، فجاءت السورة على أغراض متعددة حتى تلائم حال كل قارئ وما يشتهيه من أنواع العلم ، فربما يكون من محبى القصص فلا يفوته أن يرى ذلك ، وربما يكون من عاشقى الأحكام فلا يفوته ذلك ، هذا ملخص كلامهم ، وهو كلام له وجاهته غير أنه مردود بكثير من الأمور ، منها أن السور القصار لا يظهر فيها هذا ، ومنها أن قصة أى نبى عدا سيدنا يوسف - عليه السلام - لم تشملها سورة واحدة ، وإنما وردت قصة النبى الواحد فى عدة سور . على أى حال فهذا ما يظهر للقارئ عند النظرة الأولى .

غير أن الذين اعتادوا مساءلة الكلام ، والذين أولعوا باستكشاف علائق الأنساب بين المعانى حين يطالعون سورة الفجر تدور فى أذهانهم عدة أسئلة من

مثل :

ما علاقة القسم بالفجر بالقسم بالليالى العشر ، وما علاقته بالشفع والوتر ولماذا الشفع والوتر خاصة ؟

ما العلاقة بين هذه الأقسام وبين الحديث عن قوم عاد وثمود وفرعون وأى اختصاص أسلوبى للحلقات المصطفاه من هذه القصص ، وما علاقة هذه الاختصاصات بالأقسام ؟

وما علاقة القصص هذه بالحديث عن الإنسان المبتلى والآخر المكرم ؟

ولماذا كانت علة ابتلاء الإنسان هنا عدم إكرام اليتيم ، وعدم التحاض على طعام المسكين ، وأكل التراث وحب المال ؟ وهل هى الأسباب فى الابتلاء فحسب ؟ ثم إن علامات الساعة وآياتها الكبرى كثيرة ، فما علة اختصاص السورة بدك الأرض ؟ كذلك مواقف الحساب كثيرة فلم اصطفى القرآن موقف مجئ الله والملائكة صفا صفا ؟ وما علاقة كل ما معنى بالقسم فى أول السورة وبقصص الأمم السابقة ؟ وما علة اختصاص السورة بالنفس المطمئنة ؟ هذا عن السؤال عن بعض العلاقات باختصار ، ثم تتساءل النفس ما علاقة آخر السورة بأولها ؟ وما علل ترتيب هذه الموضوعات التى أشرنا إليها لماذا جاء القسم بهذا التتابع ، ثم أعقبه قصص الأمم السابقة ، ثم أعقبه تقسيم الإنسان ، ثم أعقبه الحديث عن يوم القيامة وعن يوم الحساب ، ثم الحديث عن النادم وعن المطمئن وجزاء كل ؟

لماذا وردت بعض الألفاظ فى هذه السورة ولم ترد فى سواها من سور الذكر الحكيم من مثل (الشفع - الوتر - يسر - لذى حجر - إرم ذات العماد . . .) إلى آخر ذلك ، كما سنحاول بيانه بإذن الله .

وقل مثل ذلك فى التراكيب ، وقل مثل ذلك فى مساءلة الكلام المقدس هذا عما اختصت به التراكيب المشتركة التى وردت فى السورة ووردت فى مواضع أخر . أظنك الآن أدركت خطر هذا الدرس ، وعرفت وعورة البحث فيه .قلت هذا حتى أعذر ، فإنى واقع وإن تحاميت ، وإنى زال مهما تنبهت ، وإنى عاثر مهما أبصرت وعذرى أننى محاول والله من وراء القصد وهو الهادى سواء السبيل .

علاقات الآيات وأسرار تجاورها فى السورة ، وكذلك أسرار تجاور السور ضرب من الإعجاز كما ذكر الأئمة ، فقد ذهب أبو جعفر النحاس إلى أن تأليف القرآن من إعجازه [1]، وقد ذكر ـ رحمه الله ـ أن هذا أصل من أصول المسلمين لا يسعهم جهله ؛ لأنه لو كان التأليف من غير الله ورسوله لسوعد بعض الملحدين على طعنهم[2] وذهب الفخر الرازى ـ فى تفسير سورة البقرة ـ إلى أن من تأمل فى لطائف نظم هذه السورة ، وفى بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته [3].

ومن أجل هذا ذهب جمع من علماء الأمة إلى أن ترتيب السور فى المصحف الشريف توقيفى ، ويطلع على ذلك أسباب :

أحدها : بحسب الحروف كما فى الحواميم.

وثانيها : موافقة أول السورة لآخر ما قبلها فى المعنى كآخر الحمد وأول البقرة .

وثالثها : الوزن فى اللفظ كآخر تبت وأول الإخلاص .

ورابعها : مشابهة جملة السورة لجملة الأخرى مثل «والضحى» و «ألم نشرح[4]» .

وقد ردوا مذهب القائلين ، لا يطلب للآى الكريمة مناسبة ؛ لأنها حسب

(١) الإتقان ٢/ ١٣٨ .

(٢) الناسخ والمنسوخ ١٥٩ .

(٣) مفاتيح الغيب ٧/ ٣٤ .

(٤) البرهان للزركشى ١/ ٢٦٠ .

الوقائع المتفرقة . ردوا ذلك بأنها على حسب الوقائع تنزيلاً وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف كما أنزل إلى بيت العزة، ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر ، والذى ينبغى فى كل آية أن يبحث أول كل شئ عن كونها تكلمة لما قبلها أو مستقلة ، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ، وقد ذكروا أن فى ذلك علما جما ، وقالوا أيضا « فى السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له »[1] .

هذا وفقه المناسبات بين السور والآيات تكون بالنظر إلى المعانى وكيف تجاورت وتحاورت فى الكتاب العزيز ، والتراكيب هى المعابر إلى فقه المعانى ، لأن أثر التناسب فى المعانى يظهر فى التراكيب ، والدرس البلاغى الصابر هو الذى يظهر تناسب المعانى بفقه التراكيب حتى تكون العلاقة بين التراكيب والمعانى كفلق الصبح .

وبهذا تكون دراسة تناسب التراكيب فى السورة وفى السور من أعظم أبواب الفقه ، وحديث أئمتنا دال على أنهم كانوا يحسون هذا التناسب ولهم فى ذلك إشارات زاخرة بالعلم البلاغى الذى لا تجده فى كتب البلاغيين . وخلاصة القول أن تناسب المعانى يتبعه تناسب الألفاظ والتراكيب . وهو مما يجعل الدرس البلاغى وسيلة لا غاية .

(١) البرهان ١/٣٧ .

تتناسب السورة مع ما قبلها ومع ما بعدها ، وحاول العلماء كشف ذلك وإيضاحه فسورة الأعلى أجملت حالى المؤمن والكافر والنار والجنة ﴿**سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى**﴾ إلى قوله : وسيجنبها الأتقى ثم جاءت الغاشية شرحا وتفصيلا للجنة والنار[1] ﴿**تصلى نارا حامية . تسقى من عين آنية ...**﴾ وهو شرح للنار الكبرى وتفصيل ليوم الجزاء ، وإثبات لهذا اليوم بالإحالة إلى تدبر قدرة الله فى مخلوقاته يعاينونه ويشاهدونه من خلق الإبل ، ورفع السماء ، ونصب الجبال وتسطيح الأرض .

ثم جاءت سورة الفجر لتؤكد إثبات مجئ يوم الجزاء ، ويكون قطب ذلك فيها الأمم الغابرة ، وهذا ما ألمع إليه ابن الزبير حيث قال بعد الحديث عما خلقه الله للإنسان مما جاء فى سورة الغاشية : «فالإبل لأثقالهم وانتقالهم، والسماء لسقيهم وإظلالهم ، والجبال لاختزان مياههم وإقلالهم . والأرض لحلهم وترحالهم ، فلا بهذا استبصروا ولا بمن خلا قبلهم من القرون اعتبروا[2] » أى ما عرض فى سورة الغاشية فيه استدلال على الخلق ، والخالق قادر على البعث مرة أخرى ، وهى أدلة مبصرة ومشاهدة ، فكأن سورة الغاشية تثبت يوم الجزاء بطريق ، وتثبته سورة الفجر بطريقة أخرى والسورتان كأنهما تفصيل لما أجملته سورة الأعلى ، وسورة البلد امتداد لهذا الغرض فى إثبات الجزاء والحساب ، وهكذا تتعاقب السور فى تناول الأغراض تعاقبا لا سبيل إلى تقديم فيه أو تأخير .

(١) تناسق الدرر فى تناسب السور ١٤٩ ، ١٥٠ تصرف .
(٢) البرهان فى تناسب سور القرآن ٢٢٧ .

وهناك تراكيب فى السور المتجاورة توحى بهذا ، خذ من ذلك مثلا قوله تعالى فى سورة الأعلى فذكر إن نفعت الذكرى . سيذكر من يخشى تجد نوره فى قوله من سورة الغاشية : **﴿ فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر ﴾**. حين تتدبر أنت هذين التركيبين ترى أنهما كالمتتابعين تتابعا يكشف عن تصعيد المعنى . فالأمر بالتذكير فى التركيب الأول متبوع بقيد (إن نفعت الذكرى) وقد ذكر العلماء أجوبة لهذا القيد منها ، أن هذا القيد جاء إشارة لئلا يتعب الرسول ـ ﷺ ـ نفسه ويتلهف عليهم ، أو لذم المذكرين واستبعاد تأثير الذكرى فيهم، أو للإشعار بأن التذكير إنما يجب إذا ظن نفعه[1] .

ومعلوم أن هذه التأويلات إنما هى بعد إلزامهم الحجة ؛ لأن الرسول ﷺ مأمور بإنذار الكل ، والمعنى أن ذكرهم وإن كان نفع الذكرى قليل التوقع أما التركيب الثانى فقد أتبع فيه الأمر بجملة فيها قصر (إنما أنت مذكر) وبما يشبه التوكيد المعنوى لها (لست عليهم بمصيطر) فبينهما كمال اتصال ، أى ذكر وإن انتفى نفعه ؛ لأن مهمتك التذكير ، ألا تبصر معى أنه أعلى حدة من التركيب الأول ، وكأنه تصعيد للكشف عن حال المخاطبين وأن إنكارهم وانتفاء انتفاعهم بالتذكر غدا محالاً . حتى انصب الاهتمام على أداء مهمته ـ ﷺ ـ فى التذكير فقط دون نظر إلى نفع ذلك أو عدمه .

خذ فى اعتبارك ما ذكرت ثم اقرأ قوله تعالى فى سورة الفجر **﴿يومئذ يتذكر الإنسان ما سعى ﴾** وكأنه تسلية للرسول ـ ﷺ ـ بكشف حال الكفار حين الحساب وتذكرهم ، كأنها معان متعاقبة كما قلت لك . أى ذكر حين يكون نفع التذكير محتملا .

ألا تلمح معى تناسبا فى قوله تعالى فى سورة الأعلى : **﴿ الذى خلق**

(١) البيضاوى بها مش الشيخ زاده ٤/ ٦٥٠ بتصرف .

فسوى ﴾ ﴿ والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ﴾ ألا ترى أن قوله تعالى الغاشية ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ كالمثال والشاهد لـ ﴿خلق فسوى﴾ ونموذج لبيان نعمة الله فى المرعى ، ألا ترى أن كل ذلك داخل فى قوله فى سورة الفجر ﴿وتحبون المال حبا جما ﴾ ، كذلك ترى التناغى بين قوله تعالى فى سورة الأعلى ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ وبين قوله تعالى فى سورة الفجر ﴿ والفجر وليال عشر والشفع والوتر ﴾ فالفجر هو أول الصلوات والشفع ولوتر يذكرنك بالعشاء وهى آخر الأوقات .

كذلك ترى ما أجملته سورة الأعلى ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ تفصله سورة الفجر ﴿ كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما ﴾ وترى فى هذه التراكيب نغمة إيثار الحياة عالية ، فهم لا يتحاضون على طعام المسكين فضلا عن أن يطعموه، وهم لا يميزون الحلال من الحرام فى جمع المال إيثاراً للحياة الدنيا على الآخرة. وترى نوره أيضا فى سورة البلد ﴿أو إطعام فى يوم ذى مسغبه يتيما﴾.

كذلك ترى تشابها فى المعنى يتبعه تقارب فى التركيب فى قوله تعالى : ﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ مع قوله : ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد﴾ وكأنها شرح لشئ من العذاب الأكبر أو عرض للمعنى بطريقة أخرى من التركيب آكد منها .

كذلك نرى قوله تعالى : ﴿ إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم﴾ يشرحه قوله تعالى فى آخر سورة الفجر « وجئ يومئذ بجنهم . . . إلى آخر السورة . تفصيلا للإياب والحساب .

كذلك تقابل بعض المعانى مع البعض الآخر من ذلك قوله تعالى فى سورة الغاشية ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت

وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ .

ترى هذا الإنعام الرائع يقابله دمار رهيب ﴿كلا إذا دكت الأرض دكا دكا﴾ فى سورة الفجر .

وهكذا ترى السورة تتشابك معانيها مع سابقتها ولاحقتها تشابكا لا سبيل لك إلى إنكاره ، مما يدلك على أن التجاور بين السور إنما هو بتوقيف من الله عز وعلا إذ هى حبة فى ذلك العقد المنظوم من أول البقرة إلى آخر الذكر الحكيم ، ولو تتبعت معنى واحدا من الفاتحة إلى البقرة إلى آل عمران . . . إلى آخر الكتاب العزيز لما كفاك عمرك إلى استكشاف ذلك ووصفه والبيان عنه بيانا شافيا ، مع أن إحساسك بعلاقات القربى بين المعانى يتعالى صداه فى نفسك ، فإذا ما نزعت إلى قيد هذا الإحساس بالقلم ند عليك كطيف من نور يشع فى فؤادك ، فإذا أردت الإحاطة به حاولت محالا وطلبت ما لا ينال .

وقاصمة الظهر الأشد مما مضى أنك ترى مقصد سورة الفجر - أو غيرها من السور - يتقارب مع مقاصد سور أخرى ويتشابك تشابكا يصعب معه فض هذا التشابك حتى تكون المقاصد كالحدود الفاصلة غير أنك ترى أن مقصد كل سورة يسلمك إلى مقصد السورة التالية لها فى تسلسل معجز ، وهو قبل أن يسلمك إلى مقصد السورة التالية يلقى أطيافا فى حواشى الآية تشير إلى المقصد التالى . إن هداك الله إلى الوقوف على ذلك أيقنت أن ترتيب السور توفيقى .

تأمل قول السيوطى فى لحظ مناسبة سورة الفجر للغاشية لم يظهر لى من وجه ارتباط سوى أن أولها كالإقسام على صحة ما ختم به السورة التى قبلها من قوله جل جلاله : ﴿إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم﴾ وعلى ما تضمنه من الوعد والوعيد ، كما أن أول الذريات قسم على تحقيق ما فى (ق) وأول المرسلات قسم على تحقيق ما فى (عم) هذا مع أن جملة ﴿ألم تر كيف فعل

ربك بعاد﴾ هنا مشابهة لجملة ﴿أفلا ينظرون﴾ هناك [١]، ولعل التشابه فى الإحالة على النظر فى السورتين ، أى أفلا ينظرون فى الحاضر والغابر ـ لتدبر قدرة الله وقهره ، فى حال الخلق والتدمير .

ثم ألمع إلى تواصل سورة الفجر مع ما بعدها سورة البلد فقال : «أقول: وجه اتصالها بما قبلها أنه لما ذم فيها من أحب المال ، وأكثر التراث ، ولم يحض على طعام المسكين ، ذكر فى هذه السورة الخصال التى تطلب من صاحب المال من فك الرقبة والإطعام فى يوم ذى مسغبة [٢]»

ومنه أيضا ما ذكره ابن الزبير فى سورة الفجر : «أبدى سبحانه لمن تقدم ذكره وجها آخر من الاعتبار ، وهو أن يتذكروا حال من تقدم من الأمم وما أعقبهم تكذيبهم واحترامهم [٣]» فكأن السورتين تعاونتا فى إبراز مقصد بطريقين متعانقين فى إثبات الإياب والحساب .

وقد لمح أبو حيان المناسبة بين السورتين فقال : «لما ذكر فيما قبلها : ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ ، ﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾ أتبعها بذكر الطوائف المتكبرين المكذبين المتجبرين الذين وجوههم خاشعة ، وأشار إلى الصنف الآخر الذين وجوههم ناعمة بقوله : ﴿يأيتها النفس المطمئنة ... ﴾ وأيضا لما قال : ﴿إلا من تولى وكفر...﴾ .

قال هنا : ﴿إن ربك لبا المرصاد﴾ تهديدا لمن كفر وتولى [٤].

وقد ذكر علامة هذا الباب (علم الناسبة) أنه : (لما ضمنت تلك بأنه لا

(١) تناسق الدرر ١٥٠ .

(٢) السابق ١٥١ .

(٣) البرهان ٢٢٧ .

(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٦٧ .

بد من الإياب والحساب ، وكان تغيير الليل والنهار ، وتجديد كل منهما بعد إعدامه ، والاعلى القدرة على البعث ، وكان الحج قد جعله الله فى شرعه له على وجه التجرد عن المخيط ولزوم التلبية والسير إلى الأماكن المخصوصة آية مذكرة بذلك قال : ﴿**والفجر**[1]﴾ .

وذكره الحج هنا جاء على ما تأوله العلماء فى ليال عشر من أنها عشر ذى الحجة كما سيأتى بيانه بعد ، وهو كما ترى ـ التقط المناسبة التقاطا نابها ، إذ أبصر فى القسم بالفجر حركة البعث التى تذكر بالموت ، وهى أكبر شاهد ، وأعظم دليل على أنه ـ عز وعلا ـ سيعيد الخلق كما بدأهم ، وكما توحى به مظاهر الحياة فإذا ما ثبتت إعادتهم بالحجة ، ثبت حسابهم ، وربما يدور فى ذهنك أن معظم الاقسام المتصدرة كثيرا من السور فيها هذا المعنى ﴿**والنجم**﴾ ﴿**والشمس**﴾ ﴿**والليل**﴾ فإن النجم يظهر ويختفى ، وكذلك الشمس وكذلك الليل ومعنى هذا أنه كان يمكن لسورة النجم أن تكون فى موضع سورة الفجر ، وقل مثل ذلك فى سورة الليل وغيرها .

والجواب ـ إن شاء الله ـ أن الفجر ـ خاصة ـ يعقب الليل ، والليل فيه السكون وفيه النوم ، والنوم أشبه شئ بالموت ، والتيقظ أشبه شئ بالإحياء ، والفجر هو أول اليقظة وأول الانتشار ، ولا ترى فى النجم شيئا من هذا ، ولا فى الليل ولا فى غيرها من الأشياء المقسم بها وإن كان فى كل منها جزء مما فى الفجر إذ هو فاصلة بين ما يشبه الموت وما يشبه الحياة .

يطول بنا الحديث إن أردنا أن نثبت لك أن النوم موته صغرى ـ عقلا ـ واليقظة كذلك إحياء أصغر ، غير أنك من الممكن أن تستشعر ذلك لو تأملته حال نومك ، وحال يقظتك ، والله يوفقنى وإياك إلى فقه ذلك .

---

(١) نظم الدرر ٨/٤١٣ .

المهم أنك ترى العلامة البقاعى يريك كيف أن كل سورة تشع بمقصد السورة الأخرى وأن ترتيب السور معجز . لعلك قد أيقنت أن المعنى فى السورتين يأبى أن تضع سورة الفجر فى غير هذا الموضع من الذكر الحكيم .

بل إن أبا حيان ـ رحمه الله ـ قدر جواب القسم فى ﴿**والفجر ...**﴾ بما دلت عليه خاتمة سورة الغاشية ، فجواب القسم عنده (والفجر .... لإيابهم إلينا وحسابهم علينا) وذكر الشوكانى أن هذا التقدير ضعيف جدا[1] ، والحق أنه رأى سديد يعى تواصل السور وتتابعها ، وينظر إلى الآية فى سياقها الطويل.

---

(١) البحر المحيط ٨/٤٦٨ ، ٤٦٩ ، فتح القدير ٥/ ٤٣٢ ، أضواء البيان فى تفسير القرآن بالقرآن ٩/ ٢١٣ .

مقصد السورة الكريمة

ذكر ابن عاشور أن السورة الكريمة حوت من الأغراض ضرب المثل لمشركى أهل مكة فى إعراضهم عن قبول رسالة ربهم بمثل عاد وثمود وقوم فرعون ، وإنذارهم بعذاب الآخرة ، وتثبيت النبى (ﷺ) مع وعده باضمحلال أعدائه ، وإبطال غرور المشركين من أهل مكة إذ يحسبون أن ما هم فيه من النعيم علامة على أن الله أكرمهم ،وأن ما فيه المؤمنون من الخصاصة علامة أن الله أهانهم وأنهم أضاعوا شكر الله على النعمة فلم يواسوا ببعضهما الضعفاء، وما زادتهم إلا حرصا على التكثر منها ، وأنهم يندمون يوم القيامة على أن لم يقدموا لأنفسهم من الأعمال ما ينتفعون به ، يوم لا ينفع نفسا ما لها ولا ينفعها إلا إيمانها ، وتصديقها بوعد ربها وذلك ينفع المؤمنين بمصيرهم إلى الجنة (١).

هذا ما ذكره الشيخ وهو غرض واحد ، وإن صدره بقوله حوت من الأغراض فكلامه دال على أن السورة كلها دارت حول ضرب المثل لمشركى مكة، وما ذكره بعد ذلك هو من مستتبعات هذا المثل ، والغرض منه ، فكأن ضرب المثل الغاية منه إثبات عذاب الكافرين ، وإنذارهم وتهديدهم ، وهذا ما صرح به الشيخ عبد المتعال الصعيدى ـ رحمه الله ـ فقد ذكر أنه «يقصد من هذه السورة إثبات عذاب الكافرين ، وقد جاء أكثرها فى إنذارهم وتهديدهم ، إلى أن ختمت بشئ من الترغيب لتجمعهما معا ، وبهذا يشبه سياقها سياق سورة الغاشية ، ويكون ذكرها بعدها مناسبا لها (٢).

والواضح أن كلامهما ـ رحمهما الله ـ يتفق فى نهاية المطاف فى أن

(١) التحرير والتنوير ٣١/٣١١ ، ٣١٢ .

(٢) النظم الفنى ٣٤٩ .

السورة لها مقصد واحد ، عليه تدور آياتها ويتواصل المطلع فيها بالخاتمة تظاهرا على بيان هذا المقصد خذ ما عرضته من قول الشيخين ، ثم تدبر قول البقاعى فى الكشف عن مقصد السورة « ومقصودها : الاستدلال على آخر الغاشية (الإياب والحساب ، وأدل ما فيها على هذا المقصود الفجر ، بانفجار الصبح عند النهار الماضى بالأمس من غير فرق فى شئ من الذات ، وانبعاث النيام من الموت الأصغر ، وهو النوم ، بالانتشار فى ضياء النهار لطلب المعايش للمجازاة فى الحساب بالثواب والعقاب [1].

العلامة لم يكتف ببيان المقصد ، وإنما أراك المناسبة ، وكشف لك كيف قذف القرآن بمقصد السورة فى أول كلمة فيها ، ثم بين لك ترتيب المقصد فى السورة فجعل المقصد الاستدلال على الإياب والحساب ، وحين تتدبر أنت آيات السورة الكريمة لا تراها خارجة عن هذا المقصد حين تتأمل تراكيبها ، وخصائصها ، وطابعها البلاغى الذى لا تجده فى سورة أخرى .

ثم إن كشفه هذا المقصد يدلنا على أن للسورة خيطا دقيقا يصلها بفاتحة الكتاب ، فهى مما يوضع من الكتاب تحت قوله تعالى : ﴿ما لك يوم الدين﴾ فهى شارحة له ، وبين الفاتحة وبين سورة الفجر خيط دقيق خذ من ذلك مثلا قصتى البقرة والأطيار والحمار فى سورة البقرة ، وما فيها من الدلالة على الإياب ، وإثبات الإياب إثبات للحساب ، لابد أن ترى ذلك فى كل السور .

وهناك سور تتقارب مقاصدها مع مقصد هذه السورة خذ من ذلك مثلا سورة الأنبياء فمقصودها : الاستدلال على تحقق الساعة وقربها ولو بالموت ووقوع الحساب فيها على الجليل والحقير [2]. وفيها كان ذكر مصارع الأمم

(١) نظم الدرر ٨/٤١٣ .

(٢) نظم الدرره ٥/٦٣ .

الغابرة طريقا من طرق إثبات الساعة ووقوعها ، غير أن طبيعة التراكيب هناك تخالف طبيعة التراكيب فى سورة الفجر ، فليس فى الأنبياء نصوص صريحة لمصارع الغابرين ، وسورة الفجر فيها إجمال لمصارعهم ، وبوسعك أن تقارن بين التراكيب فى السورتين حتى تقع على الفروق .

ومن ذلك أيضا سورة النبأ فمقصودها : الدلالة على أن يوم القيامة. . . ثابت ثباتا لا يحتمل[1] غير أن طريق الإثبات فيها أشبه بما فى الغاشية من الموضوعات وإن كان ما فى النبأ أكثر بسطا مما فى الغاشية من حيث الإحالة فى إثبات ذلك على ما فى الكون **﴿ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتاداً﴾** ترى لها شبها كبيرا بقوله تعالى فى الغاشية **﴿وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾** وأنت تبصر أن المعانى متقاربة ، وليست متكررة ، وكأن هذا التغاير فى التراكيب كما أنه إلماع إلى اختلاف المقاصد ، فهو إلماع أيضا إلى اشتباهها وتقاربها .

ولا ينتهى بنا القول إلى حد إذا ما أردنا تتبع مثل هذا فى الذكر الحكيم، مع أنه بحث رائق رائع تنقطع دونه الأعناق ، وتمضى دونه الأعمار ، إلا أنه يجب أن تشير إلى مثله ، ربما يهيئ الله له من طلبة العلم وأهله من يقوم بحقه.

وقد أبصرت ـ كما أشرت إليك سلفا ـ أن كل مجموعة من السور القرآنية يمكن وضعها تحت آية من فاتحة الكتاب أم القرآن ـ كما قال سيدى رسول الله ﷺ ـ وفداه أبى وأمى ونفسى وعينى .

(١) السابق ٨/ ٢٩٤ .



القسم عند البلاغيين من الإنشاء الغير الطلبى ، ولم ينل خطه من الدرس البلاغى ، لأن الإنشاء الطلبى هو الأحق بالعناية والنظر ؛ لاختصاصه بمزيد أبحاث لم تذكر فى بحث الخبر ، ولأن كثيرا من الإنشاءات الغير الطلبية فى الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء [١]، هذا ما علل به البلاغيون لعدم الاهتمام بالإنشاء الغير الطلبى ، وقد أخرج بعضهم أفعال الترجى والقسم [٢]، لكثرة المباحث المتعلقة بهما .

هذا ولم يقصد البلاغيون أن الانشاء الغير الطلبى عار من الأسرار البلاغية وإنما قصروا بحثهم على المشكل من ألوان الإنشاء ؛ لتشابك علمى المعانى والبيان فى الطلبى كخروج الاستفهام إلى المجاز وغير ذلك مما هو مذكور فى كتبهم .

من أجل ذلك قال الشيخ المنياوى : فأما غير الطلب .... فلم يتعرض لها فى النظم لقلتها ، ولأنها منقولة عن الخبرية ، فأحوالها تستشعر من أحوال أصلها الذى هو الخبرية [٣]. أى أن الإنشاء الغير الطلبى داخل فى الباب البلاغى المتسع وهو النظر إليها من حيث مطابقتها الحال ، وما وراء ذلك من الأسرار كما ذكر شيخنا الدكتور[٤] أبو موسى .

هذا ولا يغرنك ما تراه عند بعض البلاغيين من إهمال هذا اللون بترك

---

(١) انظر الإيضاح ٢/٣٢ ، المطول/ ٢٢٤ ، خلاصة المعانى/ ٢٢٦ ، حسن الصنيع/ ٦٧.

(٢) حاشية الدسوقى على مختصر السعد ٢/٢٣٦ .

(٣) حاشية المنياوى على شرح حلية اللب المصون/ ١١٦ .

(٤) دلالات التراكيب ١٩٢ ، ١٩٣ .

الحديث عنه ، أو بالعنونة لباب الإنشاء بـ (أحوال الطلب) أو (قانون الطلب[١]) إلى آخره ، فإن للإنشاء الغير الطلبى مواقع فاعلة ، وقد تناولنا لونا منه فى بحث سابق [٢]، وقد وجدنا فيه كلاما رائعا للمفسرين لم يذكره البلاغيون .

هذا وإن كان البلاغيون لم يولوا القسم مزيد اهتمام فى الجانب النظرى فإن المفسرين قد خدموه فى الميدان التطبيقى ، فذكروا مقاماته أغراضه وإيحاءاته فهو يرد للتوكيد فى المقامات التى تقتضى مزيد توكيد كالأمور الغائبة والخفية حين القسم على ثبوتها ، فأما الظاهر فيقسم به ولا يقسم عليه كالشمس والقمر[٣].

وقد ذكر النحاة أن القسم جملة يؤكد بها الخبر ، حتى إنهم جعلوا قوله تعالى : ﴿**والله يشهد إنهم لكاذبون**﴾ قسما وإن كان فيه إخبار لأنه لما جاء توكيدا للخبر سمى قسما ، ولا يكون إلا باسم معظم[٤] ، وأوجز كلمة قالها سيبويه : اعلم أن القسم توكيد لكلامك[٥] .

وقد ذكر علماؤنا أنه يحسن فى مقام الإنكار ، ثم أجابوا على شبهة ربما تلامس بعض الصدور ، عن معنى القسم منه سبحانه ، قالوا : «فإن قيل ما معنى القسم منه ـ سبحانه ـ فإنه إن كان لأجل المؤمن فالمؤمن يصدق مجرد الإخبار ، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده ، فالجواب : قال الأستاذ أبو القاسم

(١) المصباح/ ٨٣ ، مفتاح العلوم/ ٣٠٢ الإشارات والتنبيهات/ ١٠٠ .

(٢) الترجى فى آى من الذكر الحكيم بحث منشور بحولية اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٩٧ .

(٣) التبيان فى أقسام القرآن / ٦ .

(٤) البرهان ٣/ ٤٠ .

(٥) الكتاب ٣/ ١٠٤ .

القشيرى : إن الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها ، وذلك أن الحكم يفصل باثنتين إما بالشهادة ، وإما بالقسم فذكر تعالى النوعين حتى لا يبقى لهم حجة[1].

وقد ذكر الشيخ الجمل جوابا على هذا الاعتراض المشهور عند كلامه على سورة الصافات بعد إيراد الاعتراض «وأجيب بأنه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة فى غالب السور بالدلائل الغيبية ، فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها بذكر القسم ، تأكيدا لما تقدم ، لا سيما والقرآن أنزل بلغة العرب ، وإثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب ، ثانيهما : أنه تعالى - لما أقسم بهذه الأشياء على صحة قوله : ﴿إن إلهكم لواحد﴾ عقبه بما هو الدليل اليقينى فى كون الإله واحدا وهو قوله : ﴿رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق﴾ [2].

فللقسم مقاماته ، وأغراضه وهو من أساليب العرب والقرآن فى توكيد المعانى ، وقد لحظ المفسرن أيضا التناسب بين المقسم به والمقسم عليه ، ولحظوا أيضا التناسب بين القسم وبين السورة المفتتحة به ، تأمل قول ابن عاشور فى سورة الصافات : وكانت فاتحتها مناسبة لأغراضها بأن القسم بالملائكة مناسب لإثبات الوحدانية ، لأن الأصنام لم يدعوا لها ملائكة ، والذى تخدمه الملائكة هو الإله الحق ، ولأن الملائكة من جملة المخلوقات العلوية ، ثم إن الصافات التى لو خطت فى القسم بها مناسبة للأغراض المذكورة بعدها ، فالصافات يناسب عظمة ربها ، والزاجرات يناسب قذف الشياطين عن السموات ، ويناسب تسيير الكواكب وحفظها من أن يدرك بعضها بعضا ، ويناسب أجرها

(١) البرهان ٣/ ٤١ ، الإتقان ٢/ ١٦٩ وما بعدها .

(٢) الفتوحات الإلهية ٣/ ٥٢٨ .

الناس فى المحشر ، والتاليات ذكرا يناسب أحوال الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وما أرسلوا إلى أقوامهم . . . والقسم لتأكيد الخبر مزيد تأكيد ، لأنه مقتضى إنكارهم الوحدانية[1] ، فقد أبصرت أنه - رحمه الله - قد لحظ التناسب بين أول السورة فى الأقسام وبين موضوعاتها .

وقد ذكر علماؤنا أن الأقسام إن توالت فى أول السورة فهى كالقسم الواحد ، وأضيف أن تتابعها يكشف عن تتابع التناسب بين آيات السورة ، كما يكشف عن شدة الارتباط بين آى السورة ، فالقسم وجوابه فى مفتتح السورة يمثل خريطة لآى السورة ، ويشير الارتباط بين القسم وجوابه ، إلى ارتباط الآى كما ذكرنا ، فهى تتظاهر على معنى واحد ، وإن بدت غير ذلك مثل تعدد الأقسام فى أول السورة .

فى ذلك يقول البقاعى فى سورة الذاريات : «مقصودها : الدلالة على صدق ما أنذرت به سورة (ق) تصريحا وبشرت به تلويحا ، ولا سيما آخرها من مصاب الدنيا وعذاب الآخرة ، واسمها (الذاريات) ظاهر فى ذلك بملاحظة جواب القسم ، فإنه مع القسم لشدة الارتباط كالآية الواحدة وإن كان خمسا[2]»

وقد أظهر كلامه - رحمه الله - أن القسم رابطة قوية تعقد السورة اللاحقة بالسورة السابقة ، والنظر فى عناصر القسم ولا سيما المتعدد منه يشير إلى ترابط آى السورة وشدة لحمتها . وسنقسم السورة إلى مطلع وخاتمة وفقرات بينهما ، وقبل ذلك نشير إلى المعنى إشارة موجزة تكشف عن جريانه فى السورة .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/ ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) نظم الدرر ٧/ ٢٦٩ .

المعنى سلك ينتظم آى السورة الكريمة

المعنى فى سورة الفجر هو ذلك المقصد الذى تدور من حوله آى السورة الكريمة ومطلع السورة وخاتمتها هما شاطئان تحرك المعنى بينهما . فكل آى السورة تدور حول إثبات الإياب والحساب .

فالمطلع يثبت الإياب بالعقل فالقسم بالفجر ينبه إلى استنتاج الإياب والبعث واليقين بوقوع ذلك ، ثم يثبته الحديث عن مصارع الغابرين بالواقع كما تدل شواهد التاريخ ، مع ملحظ مهم هو أن السورة لم تذكر من أحوالهم إلا ما يدل على عظمتهم **﴿التى لم يخلق مثلها فى البلاد﴾** **﴿الذين جابوا الصخر بالواد﴾** **﴿وفرعون ذى الأوتاد﴾** وهذا يدل على حضارتهم حتى لا يقال إن الله لا يعذب إلا توافه الأمم وحقيرها إن طغوا لأنه إذاً رب ضعيف ، وأتبع ذلك بما يدل على فسادهم وطغيانهم الذى أوجب تدميرهم تدميرا ، ألا ترى أن كل ذلك من آيات حساب الله للأمم الطاغية ، وكأن ذكر الأمم كان إثباتا للحساب بالتصريح من بعد ما أشار إليه القسم بالفجر ، فإن الإياب إذا ثبت فالحساب ثابت أيضا ، أنت ترى أن المقصد يتحدر معك فى الإثبات ، ثم انظر ما يقابل ذكر أحوال الغابرين من العظمة والطغيان ، وما عبر به ربنا عن تعذيبهم **﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب﴾** ثم تلالأ المقصد **﴿إن ربك لبا لمرصاد﴾** .

وعلاقة تقسيم الإنسان تجاه نعمة ربه بالمقصد (فأما الإنسان . . .) علاقة السبب بالمسبب ، علاقة المقدمة بالنتيجة ، من أسباب التعذيب عدم الشكر عدم الرضا ، عدم إكرام اليتيم عدم الحض على طعام المسكين ، أكل الحرام .عدم التحرى فى جمع المال ، وهى بمثابة تعريجة فى المعنى تربط الحاضر بالماضى ، وتذكر بعاقبة الإفساد فى الأمم الماضية لتكون عبرة وعظة ومرآة لحاضر الناس ، وقد كان ما حدث بالأمم الغابرة جزءاً من حسابهم وعقابهم ،

أما العقاب فهو فى اليوم الأكبر .

وكان مطلع السورة إثباتا للإياب والحساب بمنطق العقل ، وبما ينتهى إليه الإنسان بعد التدبر العميق فى ظاهرة انفلاق النهار من الليل ودلالة ذلك على البعث ، وبتدبر أحوال الغابرين كيف بادوا ، إلى أين ذهبوا ، وأين هم ؟ إن من عنده أو فى عقل لابد أن ينتهى بعد هذه الرحلة إلى القناعة واليقين بالإياب والحساب ، فيرعوى عن كل ما يغضب ربه فيكرم اليتيم ويحض على طعام المسكين . . . الخ .

إن قوله تعالى ﴿**كلا إذا دكت الأرض دكا**﴾ وكان يعانق الآيات الكريمات ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد**﴾ هذا تدمير وهذا تدمير ، هذا تدمير كبير وذاك التدمير الأكبر إن الماضى يؤيد الحاضر ، فتعد هذه الآية كالنتيجة لمثل قوله : ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد**﴾ ثم تأتى الآيات من بعد ذلك ناظرة إلى أول السورة وهى شرح للإياب والحساب من بعد ما أثبتهما المطلع ، وهنا يتعانق المطلع والخاتمة فى التظاهر على معنى السورة ومقصدها الذى هو إثبات الإياب والحساب . وتقسم الخاتمة الإنسان إلى نادم ومطمئن بعد معاينة الإياب والوقوف على الحساب . كان المطلع إثباتا وكانت الخاتمة شرحا لما يحدث .

فإن تأملت فى مطلع السورة وتابعت التأمل إلى نهايتها لقيك الإثبات أولا ، والنتيجة ثانيا ، وإن تأملت آخر السورة راجعا إلى الإمام لقيك الحساب أولا ، وأثبت المطلع لك وقوعه ثانيا ، فأنت من حيث أتيت السورة فى فقه معناها رأيتها تتظاهر على مقصد واحد ، ورأيت السلك الخفى (إثبات الإياب والحساب) ينتظم كل تراكيبها ، وربما يتجلى لك ذلك أكثر ـ إن شاء الله ـ بفقه تراكيب السورة .

التأمل البلاغى لمطلع السورة ومراقبة حركة المعنى

بينا فى دراسة أخرى[1] أن مطلع السورة هو الجملة النحوية وتوابعها فى أول السورة وعلى ذلك يكون مطلع سورة الفجر هو الجملة المكونة من القسم وجوابه ، وقد اختلف الأئمة فى تحديد جواب القسم ، فقد ذكر كثير منهم أن جواب القسم هو قوله تعالى : **﴿إن ربك لبالمرصاد﴾** وأن ما بين القسم وجوابه معترض ، وجعلوا هل فى قوله تعالى : **﴿هل فى ذك قسم لذى حجر﴾** بمعنى بل ، أى بل ذلك مقنع لذى حجر [2]. وعليه فمطلع السورة على رأيهم هو قوله تعالى : **﴿والفجر وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر هل فى ذلك قسم لذى حجر . ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد. الذين طغوا فى البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد ﴾** ومنهم من ذهب إلى أن جواب القسم هو قوله تعالى : **﴿هل فى ذلك قسم لذى حجر﴾** وهل عندهم للاستفهام التفخيمى التعظيمى للأمور المقسم بها ، وقد أبطل هذا الرأى السمين الحلبى ، وذكر مقاتل أن هل هنا فى موضع إن ، وتقديره : إن فى ذلك قسما لذى حجر قال السمين : وهذا قول باطل لأنه لا يصلح أن يكون مقسما عليه على تقدير تسليم أن التركيب هكذا ، وإنما ذكرته للتنبيه على سقوطه [3]» .

---

(١) علاقة المطالع بالمقاصد فى القرآن الكريم رسالة دكتوراه للباحث إبراهيم صلاح الهدهد مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة ص ٥٣٧ .

(٢) مفاتيح الغيب ١٦/٣٩٤ ، بحر العلوم لأبى الليث السمرقندى ٣/٤٧٥ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٧٣٨٠ ، وحاشية الصاوى على تفسير الجلالين ٤/٣١٤ ، فتح القدير ٥/٤٣٢ .

(٣) الفتوحات الإلهية ٤/ ٥٣٠ ، إعراب القرآن وبيانه محيى الدين الدرويش ١٠/٤٦٩ .

وذهب جمهور المفسرين إلى أن جواب القسم محذوف تقديره (لنعذبن) دل عليه قوله تعالى : **﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾** والاستفهام تقريرى [(١)]، ومنهم من ذهب إلى أنه محذوف والدليل عليه خاتمة السورة قبله حكاه الشهاب، وذكره أبو حيان وضعفه الشوكانى [(٢)] على أنه أبعد نظرا فى التقدير، وأهدى سبيلا فى النقاط التناسب ، وألصق بمقصد السورة ومعناها الذى تتظاهر عليه ، والظاهر أن القول بأن الجواب هو قوله : **﴿هل فى ذلك قسم لذى حجر﴾** قول مرفوض عند جمهور المفسرين ، والقولان الأخيران ، وهما القول بحذفه أو أنه هو قوله **﴿إن ربك ... ﴾** قولان مقبولان يمكن الجمع بينهما ، لأن **﴿ألم تر كيف ...﴾** دليل الجواب إذ يدل على أن المقسم عليه من جنس ما فعل بهذه الأمم الثلاث ، وهو الاستئصال الدال عليه قوله : **﴿فصب ... ﴾** فتقدير الجواب : ليصبن ربك على مكذبيك سوط عذاب ، كما صب على عاد وثمود وفرعون . . . وإما تمهيد للجواب ومقدمة له إن جعلت الجواب قوله إن ربك. . . وما بينه وبين الآيات السابقة اعتراض جعل كمقدمة لجواب القسم ، والمعنى : إن ربك لبالمرصاد للمكذبين لا يخفى عليه أمرهم . . . فهذه العبر جزئيات من مضمون جواب القسم ، فإن كان محذوفا فذكرها دليله ، وإن كان الجواب قوله : إن ربك لبالمرصاد ، كان تقديمها على الجواب زيادة فى التشويق إلى تلقيه ؛ وإيذانا بجنس الجواب من قبل ذكره ؛ ليحصل بعد ذكره

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٥٠ ، أنوار التنزيل للبيضاوى ٢/ ٥٥٧ ، إرشاد العقل السليم ٩/ ١٥٤ حاشية محيى الدين شيخ زاده على البيضاوى ٤/ ٦٥٦ ، مفاتيح الغيب ١٦/ ٣٩٤ ، تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ٥/ ٦١ ، السراج المنير للخطيب الشربينى ٤/ ٣٠، أضواء البيان ٩/ ٢١٣ ، ٢١٤ ، تفسير المراغى ٣٠/ ١٤٢ .

(٢) الفوائد لمنسوب لابن القيم ٧١ : ٧٧ ، عناية القاضى ٨/ ٣٥٧ ، البحر المحيط ٨/ ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، فتح القدير ٥/ ٤٣٢ .

مزيد تقرره فى الأذهان[1] هذا كلام ابن عاشور ـ رحمه الله ـ وكلامه جامع للرأيين كما ترى .

والذى أبصره أن الجواب هو قوله **﴿إن ربك لبالمرصاد﴾** لأن الذكر هو الأصل ، ولا يصار إلى تقدير محذوف من غير المحذوفات المعروفة إلا إذا أعيتنا التراكيب ، والذكر الحكيم فى أقسام يطيل فى المقسم به فى مواضع كثيرة، وكثرة الاعتراضات بين القسم وجوابه . خذ سورة الشمس وسورة العاديات فإنك ترى الجواب فى الأولى قوله تعالى : **﴿قد أفلح من زكاها﴾** وهى الآية التاسعة ، ولا أعلم أحدا من المفسرين قال بحذف الجواب فى هذا الموضع ، وكذلك جواب القسم فى سورة العاديات هو قوله تعالى : **﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾** وهى الآية السادسة ، فما دام لحظ جواب القسم ممكنا فى المذكور ، فهو أولى من الحذف ، ولا يعنى هذا أن من قال بالحذف رأيه مرجوح ، لأن بناء الجمل فى سورة الفجر يبيح الطريقين ، وللحذف نكتاته وأسراره ، كما أن للذكر نكاته وأسراره .

ويمكن أن يكون بناء الجمل جاء على هذا النحو إثراء للتعبير ، وتكثيرا للمعانى ، فتكون الآيات من قوله تعالى : **﴿ألم تر كيف ...﴾** إلى قوله : **﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب﴾** : توكيداً لجواب القسم ، (لتعذبن أو لإلينا إيابهم وعلينا حسابهم) كما قال أبو حيان وعلى كونه مذكورا **﴿إن ربك لبالمرصاد﴾** يكون ما بين القسم وجوابه اعتراض يهيئ الذهن للجواب فيقع فى النفس مؤكدا أكمل توكيد وأحسنه . ففى كليهما ثراء للتعبير ، وتناولنا البلاغى للمطلع جار على أن الجواب مذكور .

﴿والفجر﴾ ذكر العلماء أن المراد بالفجر النهار ، أو صلاة الصبح ، أو

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣١٦ : ٣١٨ .

صلاة الفجر ، أو فجر الصبح والراجح أنه الفجر الصادق [1]، ومما يؤكد ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة **﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ...﴾** والبقرة / ١٨٧) ، وتدل آية الإسراء على أن الفجر يكون بعد غسق الليل **﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾** (الإسراء / ٧٨) ، ويوافقه قوله تعالى فى المدثر **﴿والصبح إذا أسفر﴾** (المدثر / ٣٤) وفى التكوير **﴿والصبح إذا تنفس﴾** (التكوير / ١٨) .

والقسم بالفجر بهذا المعنى يحضر إلى الذهن هذا الوقت المتكرر الوقوع «وهو وقت انقضاء الليل وظهور الضوء ، وانتشار الناس وسائر الحيوانات فى طلب الأرزاق ، وذلك مشاكل لنشور الموتى ، وفيه عبرة عظيمة لمن تأمل فيه، فإن الشئ إنما يقسم به إذا كان فيه فائدة دينية مثل كونه دليلا باهراً على التوحيد، أو على صحة البعث والجزاء ونحوهما ، وفائدة دنيوية تحمل المكلف على شكر نعمة الله تعالى ومجموعهما كالفجر ، فإنه مشتمل على مجموع الفائدتين المذكورتين [2]» أنت ترى أن السورة الكريمة من أول كلمة فيها تجمل المقصد وتعطيك خيط المعنى الأول بالحجة وبالإقناع ، حتى تتأمل ظواهر الكون، فتبصر انسلاخ النهار من الليل الذى يشاكل حالة البعث ، وهذه اللحظة لا توجد فى غير الفجر ، لذا لم يصلح القسم بسواه ؛ لأنه لا يتلاءم

(١) الكشاف ٤/٢٤٩ ، بحر العلوم ٣/٤٧٥ ، أنوار التنزيل ٢/٥٥٦ ، إرشاد العقل السليم ٩/١٥٣ الجامع لأحكام القرآن ١٠/٧٣٧٦ ، ٧٣٧٧ ، التبيان / ٢١ ، نظم الدرر ٨/٤١٣ ، جامع البيان ٣٠/١٠٧ ، ١٠٨ ، البحر المحيط٨ / ٤٦٨، مفاتيح الغيب ١٦/٣٨٧ ، تفسير القرآن العظيم ٤/٥٠٥ ، الفتوحات الإلهية ٤/٥٢٨ ، فتح القدير ٥/٤٣٢ ، غرائب القرآن ٣٠/٨٤ ، التفسير البيانى ٢/١٢٦ .

(٢) حاشية محيى الدين شيخ زاده ٤/٦٥٤ ، مفاتيح الغيب ١٦/٣٨٧ ، التحرير والتنوير ٣٠/٣١٢ ، ٣١٣ .

مع مقصد السورة ، ولا يلائم جريان المعنى فيها .

فمطلع السورة إذن هو منبع مقصدها ، ومبتدأ مجرى معناها ، وستبصر بعد ـ إن شاء الله ـ إشراق المطلع فى آى السورة وتجاور مقاصدها :

والذينَ قالوا إن المراد بالفجر (صلاة الفجر) إما أن يكونوا قدروا مضافا، وإما أن يكون من باب المجاز المرسل بعلاقة المحلية ، حيث أطلق اسم المحل وأراد الحال [١]، والتركيب يتيح هذا وهما لا يتعاندان ، وإنما يتعانقان فى إثراء المعنى كما ذكرنا سلفا . ويؤيدهم فى مرادهم قوله تعالى بعد ذلك : **﴿والشفع والوتر﴾** .

وقد اختلفوا فى اللام فى **﴿والفجر﴾** أهى لام الجنس أم لام العهد [٢]؟ فقد خصه بعضهم بفجر النحر [٣]، والذين قالوا هذا أولوا الليالى العشر ، بعشر ذى الحجة على أن الاعتبار بحال الناس فى الحج يذكر بالبعث والحساب، فهم خلعوا كل زينة الحياة وخلفوا أموالهم وذراريهم ، وهجروا كل متع الحياة، وابتهلوا جميعا إلى الله ، فاليوم أشبه بيوم الحشر ، وهو ذروة التذكر بالنشر فى ظاهرة انفلاق الصبح ، وذروة التذكر بالحشر فى اجتماع الخلق . فهذا الرأى لا ينافى رأى الجمهور فى أن اللام فى **﴿والفجر﴾** هى لام الجنس ، وأن المراد جنس الوقت .

فتخصيصه بيوم النحر يذكر بالمحشر ووقت الفجر نفسه يذكر بالنشر ، وفى كل حال ترى تأميلات علمائنا لا تخرج عن تناسب المعنى مع مقصد

---

(١) حاشية محيى الدين شيخ زادة ٤/ ٦٥٤ .

(٢) مفاتيح الغيب ١٦/٣٨٧ ، غرائب القرآن ٣٠/ ٨٤ ، تفسير جزء عم للإمام محمد عبده / ٦٠ .

(٣) أضواء البيان ٩/ ٢٠٩ .

السورة ، فكل تأويلاتهم تدل على إبصارهم أن القسم بالفجر استدلال للإياب. وكن على ذكر من أن القسم بالفجر لم يقع فى غير هذه السورة الكريمة تناسبا مع مقصدها ، ودليلا على اختصاص السورة بمقصد لا تجده فى سواها ، ﴿**وليال عشر**﴾ ولم يقع القسم بالليالى العشر فى غير هذه السورة أيضا لما ذكرناه لك فى القسم بالفجر ، وقد اختلف العلماء فى المراد بالليالى العشر على أقوال منها أن المراد بها عشر ذى الحجة ، والقائلون بذلك لما رأوا أن تخصيصها مناف لتنكير لفظ (وليال) ، قالوا واستغنى عن تعريفها بتوصيفها بعشر ، وأنها جاءت منكرة من بين ما أقسم به ؛ لأنها لو وقعت بلام العهد لما انفهمت الفضيلة التى تستفاد من التنكير وهى التعظيم وعلتهم فى تحديدها بأنها عشر ذى الحجة أنه ليس فى ليال السنة عشر ليال متتابعة مثل عشر ذى الحجة[1]. وقد ذكر البقاعى وجها فى تأميلها بعشر ذى الحجة وهو أنها أعظم ليالى العام ، وهى آية الله على البعث بالقيام إلى إجابة داعى الله تعالى على هيئة الأموات [2].

ومنها ما ذكر من أنها عشر رمضان ، أو عشر المحرم [3]، وقد ذكر الإمام محمد عبده رأيا جيدا ، بعد أن ذكر أن اللام فى (والفجر) لام الجنس قال فى ليال عشر هى «ليال يتشابه حالها مع حال الفجر ، وهى ما يكون ضوء القمر فيها مطارداً لظلام الليل إلى أن تغلبه الظلمة ، فكأنه وضع التناسب على

---

(١) جامع البيان ١٠٧/٣٠ ، ١٠٨ ، مفاتيح الغيب ٣٨٨/١٦ ، حاشية محيى الدين شيخ زاده على البيضاوى ٦٥٤/٤ ، ٦٥٥ ، التحرير والتنوير ٣١٣/٣٠ ، مسائل الرازى وأجوبتها / ٥٣٠ أحكام القرآن لابن العربى ١٩٢٥/٤ ، ١٩٢٦ المحرر الوجير ٢٩٣/١٦ .

(٢) نظم الدرر ٤١٣/٨ .

(٣) الجامع الأحكام القرآن ٧٣٧٦/١٠ ، ٧٣٧٧ ، فتح القدير ٤٣٢/٥ ، غرائب القرآن ٨٤/٣٠ .

شئ من التقابل ، فضوء الصبح يهزم ظلمة الليل ، ثم يسطع النهار ، ولا يزال الضوء إلى الليل ، وضوء الأهلة فى عشر ليال من أول كل شهر يشق الظلام ، ثم لا يزال الظلام يغالبه إلى أن يغلبه ، فيسدل على الكون حجبه ، ولما كانت هذه الليالى العشر غير متعينة فى كل شهر ذكرها منكرة ، وذلك أن ضوء الهلال قد يظهر حتى يغلب أول الظلمة فى أول ليلة من الشهر ، وقد يكون ضئيلا يغيب ضوؤه فى الشفق فلا يعد شيئا ، فالليالى العشر تبتدئ تارة من أول ليلة ، وأخرى من الليلة الثانية ؛ لذلك نكرها على أنها ليال عشر من كل شهر [١].

وهو رأى ناظر إلى الظاهرة الكونية فحسب ، وهى لا تغنى عن نظرة من يحددها بعشر ذى الحجة ، لأن الأخيرة فيها عبرتان ، والأولى فيها عبرة واحدة ، ويرى الأستاذ قطب أن نطلقها كما أطلقها القرآن الكريم [٢]، والحق أن القرآن لم يطلقها لأن الوصف قد خصصها فتنصرف أول ما تنصرف إلى كل عشر حددها الشرع فمنهم من فهم أنه سبحانه يقسم بها لأفضليتها فحسب فجعلها عشر رمضان ومنهم من افهم أنه ـ سبحانه ـ أقسم بها خاصة لفضلها وللغطة البالغة الواقعة فيها فجعلها عشر ذى الحجة ، وهو الألصق بمقصد السورة الكريمة .

لأن رأى الإمام محمد عبده ـ مع وجاهته ـ يشعر أن المراد ظاهرة تعاقب الليل والنهارفقط ، ومعنى هذا أنه يغنى قوله تعالى بعد ذلك ﴿والليل إذا يسر﴾ عن قوله ﴿وليال عشر﴾ كما سيأتى بعد ، والظاهر أن المراد الاعتبار بظاهرة التعاقب فى أوقات نسمات العبادة فيها أرق ، والاتصال بالله فيها أظهر

---

(١) تفسير جزء عم/ ٦٠ .

(٢) فى ظلال القرآن ٦/٣٩٠٣ .

. هذا ما يوحى به التعبير وما يغمغم به السياق .

﴿والشفع والوتر﴾ اختلف العلماء فى المراد بهما على أقوال : أولها : أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات ، والثانى : أن الوتر الخالق والشفع المخلوق ، وعلى هذا القول يكون قد جمع فى القسم بين الخالق والمخلوق [(١)].

وقد ذكر الزمخشرى أنهم أكثروا فى الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناس ما يقعان فيه ، وذلك قليل الطائل جدير بالتلهى عنه [(٢)] وإكثارهم فى تأويل معنى الشفع والوتر ، راجع إلى طبيعة دلالتهما اللغوية ، فالشفع عند العرب الزوج ، والوتر الفرد ، فالمراد بالآية إما نفس العدد ، أو ما يصدق عليه من المعدودات بأنه شفع ووتر [(٣)] ومنهم من فسر الشفع والوتر بالعشر من ذى الحجة شفعها ووترها جريا على سنة التناسب فى التأويل ، وتجد عند المفسرين تفصيلات كثيرة جمعها ابن القيم بأن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات ، وتأويلات المفسرين لا تخرج عن هذا فى الغالب [(٤)] وقد قصر الأستاذ سيد قطب المراد بالشفع والوتر على ما يعقب صلاة العشاء احتجاجا بالحديث **﴿ومن الصلاة الشفع والوتر﴾** [(٥)].

---

(١) التبيان فى أقسام القرآن / ٢٣ ، أضواء البيان ٩/ ٢١٠ ، ٢١١ .

(٢) الكشاف ٤/ ٢٤٩ ، البحر المحيط ٨/ ٤٦٨ .

(٣) فتح القدير ٥/ ٤٣٣ ، المحرر الوجيز ١٦/ ٢٩٣ ، السراج المنير ٤/ ٥٢٩ ، ٥٣٠ .

(٤) جامع البيان ٣٠/ ١٠٨ ، ١٠٩ بحر العلوم ٣/ ٤٧٥ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٧٣٧٨ ، ٧٣٧٩ تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٠٦ ، الفتوحات الإلهية ٤/ ٥٢٩ ، حاشية الصاوى على تفسير الجلالين ٤/ ٣١٤ ، نظم الدرر ٨/ ٤١٤ ، مفاتيح الغيب ٦/ ٣٩١ ، ٣٩٢ ، غرائب القرآن ٣٠/ ٨٤ ، ٨٥ .

(٥) فى ظلال القرآن ٦/ ٣٩٠٣ .

وترى الدكتورة عائشة عبد الرحمن أن النص لا يحتمل كل هذه التأويلات ، وأنه حسبنا من الشفع والوتر دلالتهما الصريحة لغة ونصا وسياقا على الازدواج والإفراد مع ما نلحظه فيهما من التقابل والتضاد دون تكلف فى تأيلهما بما يتجه بهما نحو التعظيم ، فإذا كانت الشعائر المعظمة شفعا ووترا ، فكل الأشياء العظيم منها والحقير تحتمل أن تكون شفعا ووترا [1]. وهذا مبنى على ما تجتهد فى رده من إطباق العلماء على أن المقسم به معظم أبدا ، فليس بلازم عندها أن يكون المقسم معظما ، وعند العلماء أن الله عظيم فلا يقسم إلا بعظيم ، وهو المتناسب مع دقة الصنعة فى المخلوقات .

وهذا الاختلاف فى تأويل الشفع والوتر وقع بسببين بسبب الدلالة اللغوية ، والدلالة السياقية ، واختلافهم فى هذا الموضع تابع لاختلافهم فى المراد بالفجر والليالى العشر ، فقد جعلوا تعريف الشفع والوتر مشيرا إلى أن الليالى العشر معينة ، وأن تعريفهما أيضا مؤذن بأنهما من الليالى العشر [2].

وقد قال بعضهم الشفع اليومان اللذان بعد يوم النحر والوتر هو اليوم الثالث [3]، وإنما قالوا هذا فراراً من التكرار لأن القائلين بهذا يقولون : إن المراد بالشفع والوتر شفع ووتر الليالى العشر .

وقال آخرون الشفع العيون الاثنتا عشرة التى فجرها الله تعالى من حجر موسى ـ عليه السلام ـ للأسباط ، والوتر : الآيات التسع المذكورة بقوله تعالى: ﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ...** ﴾ (الاسراء / ١٠١ [4]) وهذا

---

(١) التفسير البيانى ٢/ ١٣٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ٣١٥ .

(٣) حاشية محيى الدين شيخ زاده ٤/ ٦٥٥ وتفسير المراغى ٣٠/ ١٤١ .

(٤) حاشية محيى الدين شيخ زاده ٤/ ٦٥٥ .

التأويل - على وجاهته - أبعد من هذا السياق ، والذى أبصره أن هنا محذوفا تقديره : وقت ، لأن تحدر السياق وبناء الكلام يدلان على هذا ويلزمان به ، بالرغم مما ذكره علماؤنا ، فإن القسم بالفجر يفسر حالة الاستدلال على الإياب، وجاء القسم من بعد ذلك تأكيدا للاستدلال على الإياب بقوله **﴿وليال عشر﴾** كما سبق بيانه ، وقوله **﴿والشفع والوتر﴾** تأكيد للإياب بطريق آخر ، إذ بعد الشفع والوتر يكون النوم وتنتهى أعمال المكلفين ، والنوم أشبه شئ بالموت كما ذكرنا ، وهو غير متكرر عند أى أحد ، ويرشح لما ذكرناه ، قوله تعالى بعد ذلك **﴿والليل إذا يسر﴾** ألا تلحظ ترتب الوقت ، فإنه لما ذكر ما يشبه الإياب والحشر ذكر ما يشبه الموت بذكر زمانه ، فتعاطف الأقسام يبرز المعنى ويؤكده هذا ما أبصرته فى علاقة التجاور ولحمة التناسب ، وقد قدم الذكر الحكيم ما هو أولى بالاحتجاج وهو الإياب ، ما لم يحتج إلى احتجاج وهو الموت ؛ لذا جاء على هيئة حجة مساندة للحجة الأولى فى الاستدلال على الإياب بالقسم بالفجر ، وربما يرشح لذلك أن كل هذه الأقسام من خصائص السورة الكريمة ، وأكاد أجزم أن ما تختص السورة به من ألفاظ وتراكيب وموضوعات هى معالم دالة على مقصد السورة ؛ لذا رأيت هذه الأقسام جاءت متتابعة من أول السورة الكريمة ، إلماعاً إلى أن مفتتح السورة يجمل مقصدها ، ويوجز معناها ، وتبصر نوره فى سائر تراكيب السورة الكريمة . كما سيأتى بيانه إن شاء الله .

ولا يغيب عنك ما يوحى به الشفع والوتر من دلالة على قدرة الله - عز وعلا - الذى غيب ضوء الشمس من بعد ما كانت تملأ الدنيا ، ولا نستطيع أن نتناسى الدلالة اللغوية لهاتين الكلمتين من دلالتهما على المخلوقات والمأمورات شفعها ووترها ، فذلك يدل على كمال قدرته - عز وعلا - وقوة قهره وغلبته للعاصين ، وسعة رحمته للمطيعين .

﴿والليل إذا يسر﴾ وترى نور الترتيب والتتابع الذى ذكرته لك فى هذا القسم أيضا ، وقد ورد القسم بالليل فى سور أخرى غير أنك لا تراه مقيدا بهذا القيد ﴿إذا يسر﴾ وإنما ترى قيودا أخرى تتناسب مع مقاصد السور التى وردت فيها والليل ﴿إذا يغشى﴾ ﴿الليل/ ١﴾ ﴿والليل إذا عسعس﴾ (التكوير /١٧) ﴿والليل إذا أدبر﴾ (المدثر/٣٣) ﴿والليل إذا يغشاها﴾ (والشمس / ٤) ﴿واليل إذا سجى﴾ (الضحى / ٩٣) ﴿والليل وما وسق﴾ (الانشقاق/١٧) .

هذا ما ذكرته لك من أن المعانى المشتركة الواردة فى السورة يضفى عليها السياق ما يجعلها مختصة بالسورة لا تستطيع أن تغير موقعها ، لأنها تأتى مكسوة بروح معناها وسريان مقصدها . حتى التوافق فى الخط وفى النطق تراه واضحا فى مثل هذه الآية الكريمة . ترى ذلك فى حذف الياء من (يسر) مع أن إثباتها هو الأصل لأنها لام فعل مضارع مرفوع ؛ لذا أثبتها وصلا نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ، وأثبتها فى الحالين ابن كثير ويعقوب ، وحذفها الباقون موافقة لخط المصحف الكريم ورؤوس الآى [(١)].

وقد روى البقاعى أن المؤرج سأل الأخفش عن علة حذف الياء ، فقال : اخدمنى سنة ، فسأله بعد سنة فقال : الليل يسرى فيه ، ولا يسرى فعدل به عن معناه ، فوجب أن يعدل عن لفظه [(٢)] ، مع إجلالنا لعلمائنا فهذا غير مقبول ، لأنه إذا صدق هذا فى الفعل المعتل الآخر ، فكيف نصنع فى الصحيح الآخر (أدبر) (عسعس) بل وماذا نصنع فيما جاء معتل الآخر وثبتت ياؤه (يغشى) وهو من المجاز كما قال الأخفش وقد ذكر ابن العربى قصة الأخفش ومؤرج ثم قال : «فعجبت من هذا كجواب المقصر من غير مبصر ،

---

(١) إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ٢/٦٠٧ .

(٢) نظم الدرر ٨/ ٤١٤ .

فقال لى بعض أشياخى : تمامه فى بيانه أن ذلك لفقه هو أن الحذف يدل على الحذف وهو مثل الأول [١]، ولعله يريد أن الحذف يدل على جزء قليل من السرى فالله أعلم .

وقد ذكروا أن السرى السير أول الليل وأوسطه وآخره [٢]، والإقسام بالشفع والوتر يمنع أن يكون السرى هنا أول الليل ، ففائدة الإقسام هنا مرتكزة فى القيد (إذا يسر) ، وهو تعبير زاخر ، لأن نسبة السرى إلى الليل مجاز والمراد يسرى فيه ؛ أى مجاز عقلى علاقته الزمانية قاله السمين والظاهر عند الشهاب أنه مجاز مرسل أو استعارة ، وكلام الشهاب جاء جاريا على عادة العرب ، فقد استعملت العرب سرى فى المعانى ؛ تشبيها لها بالأجسام مجازا واتساعا ، وإسناد الفعل إلى المعنى كثير فى كلامهم نحو طاف الخيال[٣] . . .

وهذا القيد له إيحاءات كثيرة منها تذكير السارين فى الليل بنعمة الله عليهم إذ وقاهم حر الشمس ، ومجيئه على طريقة المجاز جعل الليل يبدو أمامنا مخلوقا حيا يسرى فى الكون كله ، كأنه ساهر يجتاب الظلام ، وغير ذلك كثير .

والذى يعنينا هنا هو التلاؤم بين هذا القسم ، وبين السياق الذى غرس فيه ، والذى أراه أن مجئ هذا القيد فى القسم ، جعل القسم مقصوراً على الليل فى وقت محدد يمكننا أن تقول هو الوقت الذى بين الشفع والوتر والفجر، وهذا ما يكون الإنسان فيه حال نومه أشبه شئ بالميت ؛ لأنه وقت السكون والهدوء ، والاستغراق ، وحين تجول أنت مكانا فى هذا الوقت تخال

(١) أحكام القرآن لابن العربى ٤/ ١٩٢٩ .

(٢) المصباح المنير (س ر ى) .

(٣) الفتوحات الإلهية ٤/ ٥٢٩ .

أنك فى بنيان دون سكان ، لا تسمع حركة ولا صوتا ، ولا تبصر أحدا وكأنك بين القبور ، وأنت تبصر هذا الذى قلته لك فى كلام الأئمة .

كشف جار الله عن طريقة الترتيب فى الأقسام بقوله : «وبعد ما أقسم بالليالى المخصوصة ، أقسم بالليل على العموم [1]» وقد ذكرت قبل ذلك علة القسم بليال مخصوصة وقول جار الله هذا يفتح بابا فى فقه السورة ، فكأن القسم الليل على العموم تمهيد لما سيأتى بعد من فتح باب العظة فى أحوال الغابرين من الأمم ، من بعد القسم بالليالى المخصوصة التى تخص المؤمنين فى الاتعاظ .

وقد علل القاضى البيضاوى لهذا القيد (إذا يسر) فقال : «والتقييد بذلك لما فى التعاقب من قوة الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة» وعلق الشيخ زادة على قوله فقال : «فإن أصل الدلالة عليهما تحصل بمجرد ذكر الليل بدون التعرض لانقضائه بظهور ضوء النهار ، وذلك لأن سلخ ضوء النهار من الليل، وإدخال الخلق تحت لباس الظلام بغروب الشمس آية دالة على كمال القدرة ، وفيه أيضا نعمة جليلة للناس حيث يستترون بظلمة الليل ، ويستريحون بالنوم، وبالتعرض لانقضاء الليل وتعاقب النهار عليه تقوى تلك الدلالة ، فإن آية الليل إذا محيت مع كونها محيطة بجميع أقطار العالم بانبساط آية النهار وشيوعها ، وتجدد البرهان القاطع الدال على كمال القدرة والإحسان ، الشامل لجميع الحيوانات ؛ لأنهم يصيرون بذلك كأنهم أعيدلهم الحياة بعد الموت » ثم أجاب عن شبهة «فإن قيل : القسم بالليل إذا يسر يغنى عن القسم بليال عشر ، قلنا المقسم به فى قوله : والليل إذا يسر هو الليل باعتبار مسيرة ومضيه، وفى قوله: وليال عشر . هو الليالى بلا اعتبار مضيها بل باعتبار خصوصية أخرى

---

(١) الكشاف ٤/٢٤٩ .

فلا يغنى أحدهما عن الآخر [(١)]، وقد ذكر ابن عاشور أيضا أنه قيد الليل بظرف (إذا يسر) لأنه وقت تمكن ظلمة الليل [(٢)].

وقد رجع آخر القسم إلى أوله ، وقد جاء على ما يشبه التضاد ؛ لأن الذى يضاد الليل هو النهار حتى يظهر عند القارئ والمستمع ما يشبه البعث وما يشبه الموت ويذكر به ، وإظهاراً للقدرة التى جعلت الأضداد فى خدمة الكون والإنسان ، وهذا التقابل جعل ابن كثير يقول : ويحتمل أن يكون المراد إذا سار أى أقبل ، وقد يقال إن هذا أنسب ؛ لأنه فى مقابلة قوله : (والفجر) فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل ، فإذا حمل قوله (والليل إذا يسر) على إقباله كان قسما بإقبال الليل وإدبار النهار وبالعكس [(٣)]، غير أن (سرى) لم تستعمل بمعنى سار ، والمقابلة لا تحتاج إلى كل هذا .

وفى ختم القسم بـ (والليل إذا يسر) دلالة عقلية على الشبه بين الموت والقوم ، وابتداؤه بالفجر فيه دلالة على البعث والإياب ، وكلاهما دلالة عقلية واضحة على الإياب ، وإذا ما ثبت الإياب ثبت الحساب ، لأنه لابد للإياب من علة . هذا بناء القسم وهذه لغته ، وقد رأيت الأقسام تتآخى فى إثبات الإياب وتتظاهر كلماتها على ذلك وفى الذكر الحكيم آيات كثيرة تدلل على البعث باختلاف الليل والنهار[(٤)] ولما كانت هذه حجج ظاهرة ، وآيات باهرة

---

(١) أنوار التنزيل ٢/٥٥٧ وحاشية محيى الدين شيخ زاده على البيضاوى ٤/٦٥٥ وإرشاد العقل السليم ٩/١٥٣ .

(٢) التحرير التنوير ٣٠/٣١٧ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/٥٠٦ .

(٤) من ذلك مثلا البقرة ١٦٤ ، آل عمران ٢٧ ، ١٩٠ ، الأنعام ٦٠ ، الحج ٦١ ، المؤمنون ٨٠ النور ٤٤ ، الفرقان ٤٧ ، ٦٢ لقمان ٢٦ ، فاطر ١٣ ، يس ٣٧ الزمره الحديد ٦ ، النازعات ٢٩ .

على قدرة الله على الإياب وأكد الحق - تعالى للمقسم عليه بقوله بعد ذلك .

(هل فى ذلك قسم لذى حجر) قال علماؤنا : فإن قيل فما فائدة قوله تعالى : ﴿**هل فى ذلك قسم لذى حجر**﴾ بعد أن أقسم بالأشياء المذكورة . قلنا هى زيادة التأكيد والتحقيق للمقسم عليه ، كمن ذكر حجة باهرة ثم قال : هل فيما ذكرته حجة ؟! وقد ذكروا أن الاستفهام هنا (هل) استفهام إنكارى للقسم نفسه[1] أو أن الاستفهام للتقرير[2] «أى إن فى ذلك قسما لذى لب وعقل . إن فى ذلك مقنعا لمن له إدراك وفكر ، ولكن صيغة الاستفهام - مع إفادتها التقرير - أرق حاشية »[3] وعلل ابن عاشور لإفادتها التقرير بأن أصل هل أن تدل على التحقيق إذ هى بمعنى قد [4]، وقد جاء باسم الإشارة الموضوع للبعد تعظيما له ، وقدم المسند (فى ذلك) إلماعا إلى تعظيمه وأنه خليق بالعظة والعبرة ، وأخر المسند إليه ونكره تعظيما له ؛ لذا قال علماؤنا فى اسم الإشارة «وأياما من معنى البعد للإيذان بعلو رتبة المشار إليه ، وبعد منزلته فى الفضل والشرف [5].

وقد ألمع إلى قوة الحجة وظهورها بقوله (لذى حجر) فلم يقل لذى عقل ولا لذى لب أو غيره ، وإنما جاء بهذا اللفظ كشفا عن أن الحجج الماضية ، ظاهرة لمن عنده أدنى عقل ، وأدنى مانع له من اتباع هوى النفس فيما لا

---

(١) جاشية الشيخ زاده ٤/٦٥٦ ، عناية القاضى وكفاية الراضى ٨/٣٥٧ ، الفتوحات الإلهيه ٤/٥٢٩ .

(٢) إعراب القرآن وبيانه ١٠/٤٦٨ والبحر المحيط ٨/٤٦٩ ، وتفسير جزء عم /٦١ ، فتح القدير ٥/ ٤٣٤ .

(٣) فى ظلال القرآن ٦/٣٩٠٣ ، تقسيم المراغى ٣٠/١٤٢ .

(٤) التحرير والتنوير ٣٠/٣١٧ .

(٥) الفتوحات الإلهية ٤/٥٢٩ ، ٥٣٠ .

ينبغى .

فقد ظهرت علاقة هذه الآية الكريمة بمعنى السورة ، ومكانتها من حركة المعنى فيها ، وهى بمثابة معبر وواسطة عقد بين الحجج الأولى والحجج الثانية فمن لم يعتبر بالإياب ناظرا إلى ظاهرة التعاقب فليعرج على أحوال الغابرين العتاة المتجبرين وليكن عنده فى ذلك أدنى درجات العقل ، فهذه الآية تحقيق وتقرير لفخامة الأمور المقسم بها ، وتوكيد لما أقسم عليه أيضا ، تأمل قول الزمخشرى : «أى : هل هو قسم عظيم يؤكد بمثله المقسم عليه [1]» ترى فيه كل ذلك ، مع ملحظ مهم هو أن هذا التركيب لم يقع فى غير هذه السورة ، فهو من المعالم الدالة على مقصد السورة .

وحسبك هنا قول ابن الزبير «ابتدأ ـ سبحانه ـ لمن تقدم ذكره وجها آخر من الاعتبار ، وهو أن يتذكروا حال من تقدمهم من الأمم ، وما أعقبهم تكذيبهم واجتراهم فقال : (ألم تر كيف . . .[2]) فهو وجه آخر من الحجج عند ابن الزبير ، والذى أبصره أنه استدلال لقدرة الله على الحساب .

(١) الكشاف ٤/ ٢٤٩ .

(٢) نظم الدرر ٨/ ٤١٥ .

﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد﴾ الحلقات الواردة هنا فى قصص التبيين ، فيها خصائص لم ترد فى غير هذه السورة ، بالرغم من قصرها ، فهى تلخيص دقيقه لأبرز حضارتهم ، وتدميرهم تناسبا مع مقصد السورة ومعناها ، وقد صدرت بالاستفهام التقريرى[1]، وفى ذلك إثارة لليقظة ، وتنشيط للحس ، وهى من الخطاب الخاص الذى أريد به العام وقد أوردت السورة أقوى الغابرين جبروتا ، وأعتاهم طغيانا، وأكثرهم إفساداً ، وذلك أعلق بمعنى السورة الكريمة ، وروح معناها .

والرؤية هنا ليست هى الرؤية البصرية ، لأنه ـ ﷺ ـ لم ير ببصره ، فقد نزل الذكر الحكيم الرؤية العلمية منزلة الرؤية البصرية [2]، إشارة إلى أن التواتر المنقول يورث العلم الضرورى فصار المعلوم بمنزلة المبصر المشاهد ، وهى دعوة للتأمل والنظر فى آثارهم طلبا للعظة ، لذا لم يرد فى قصة عاد فى الذكر الحكيم كله هذا التعبير (ألم تر كيف) وتوحى كيف هنا بوجوب سعة التأمل ، وتدقيق التدبر ، لإبصار كيفية إهلاك هؤلاء العتاة على الرغم مما أوتوا .

وإضافة الفعل إلى (ربك) فيها للمؤمنين طمأنينة وأنس وراحة[3] وهى ألصق بحال من يعانون من ظلم الطغاة وعتو الجبارين ، وقوله (بعاد) فيها مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث عبر بالجزء وأراد الكل ، إذ هو رأس الطاغين وسيد الجبارين وهو الذى قادهم إلى العناد ، وأعانهم على الكفر فله بذلك مزيد اختصاص فى الفساد ومزيد عناية فى الكفر ، وفيه إيحاء بقدرة الله وقهره

(١) بحر العلوم ٣/٤٧٦ ، تفسير جزء عن / ٦١ ، لتحرير التنوير ٣٠/٣١٧ .
(٢) ارشاد العقل السليم ٩/ ١٥٥ ، الفتوحات الإلهية ٤/ ٥٣١ .
(٣) فى ظلال القرآن ٦/٣٩٠٣ .

وغلبته ، وأن من آيات قوته التوجه إلى رأس الجبارين بالعذاب فهو الذى يحاسب ولا يحاسب ، وهو الذى يعذب وينعم ، هذا إذا ذهبنا إلى المجاز فى التعبير ، وقد ذكروا أن المراد أولاد عاد [(١)].

وعلى هذا فلا مجاز فى الكلام ، ويؤيده ما روى عن الحسن أن (بعاد) بفتح الدال غير مصروف بمعنى القبيلة[(٢)] غير أن اعتبار المجاز ألصق بهذا السياق الذى يتظاهر على الكشف عن قهر الله الظالمين ، (إرم ذات العماد) إرم عطف بيان[(٣)] فيه زيادة تعريف بهم ، وكشف عن أن المراد بهم عاد الأولى، وقد كانوا أشد أهل زمانهم خلقة ، وأقواهم بطشا وقد ذهب كثير من المفسرين إلى تشبيه قاماتهم بالأعمدة[(٤)] كما حكى الذكر الحكيم عنهم (فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة . . .) (فصلت/ ١٥) وقيل إرم : بلدتهم وأرضهم التى كانوا بها وعلى الأقوال ففى ذلك زيادة تعريف بهم تناسبا مع ما يجرى السياق على لاحبه من الأمر بالتدبر والنظر فى أحوال الغابرين وديارهم اعتبار واتعاظاً ويتسق مع ما يأتى من العناية بذكر ما هو خاص بهم ، وما كان محط تفاخرهم وتباهيهم (ذات العماد) ، فقد ذكروا أنه كان لعاد ابنان شداد وشديد، فملكا دهرا ثم مات شديد ، فخلص الأمر لشداد ، وملك المعمورة ودانت له ملوكها فسمع بذكر الجنة فبنى على مثلها فى بعض صحارى عدن جنة وسماها إرم [(٥)]، واعلم أن هذه الألفاظ (إرم ذات

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٥٠ ، أنوار التنزيل ٤/ ٦٥٦ ، فتح القدير ٥/ ٤٣٤ .

(٢) إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٦٠٨ .

(٣) الكشاف ٤/ ٢٥٠ ، فتح القدير ٥/ ٤٣٤ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٥٠٧ ، ٥٠٨ .

(٤) الكشاف ٤/ ٢٥٠ ، إرشاد العقل السليم ٩/ ١٥٥ ، السراج المنير ٤/ ٥٣٠ .

(٥) أنوار التنزيل ٤/ ٦٥٦ .

العماد) لم ترد فى قصة عاد قوم هود فى الذكر الحكيم إلا هنا وهذا ما ذكرته لك ، من أن قصص النبيين على كثرته ترى لكل سورة اختصاصات لا تجدها فى غيرها ؛ تناسبا مع المعنى ، وتناغما مع المقصد ، والتناسب هنا يظهر مقصدا السورة (الاستدلال على الإياب والحساب) إذ تتوجه العناية هنا إلى محط تفاخرهم كما ذكرت ، وفيه كشف عن مدى قوتهم ، ومدى قدرة الله - عز وعلا - الذى حاسبهم فى الدنيا على جبروتهم ، ويصعد الذكر الحكيم بيانه فى الكشف عن هذا بهذه الصفة التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وماذا لو قلنا هنا المنفردة فى الإبداع أو غير ذلك من التعبيرات ؟ ما من ريب أن المعنى سينطفئ ، لأن التعبير باسم الموصول هنا اقتضى ذكر جملة صلة اكتنزت من المعانى والإيحاءات الكثير ، تأمل من ذلك استخدام أداة الجزم ، التى أفادت إظهار تمام تفردهم ، وقال يخلق ، ولم يقل يبدع ولا ينشأ ، ولا يصنع . . . إلى آخره من التعبيرات الممكنة ، لأن هذا التعبير ينفى تماما ، أن يكونوا مسبوقين بمحاولة كمحاولتهم ، ويؤيد ذلك نائب الفاعل (مثلها) فنفى المثل أبلغ من نفى حقيقة الشئ ، لأن انتفاء المثيل آكد من انتفاء الشئ ذاته ، ثم تأمل التعميم (فى البلاد) فقد أوتوا ما لم يؤت أحدا من العالمين ، وهذا أظهر لقدرتهم ، وأظهر لقدرة الله عليهم ، ولم يذكر الله هنا كيفية عذابهم مع أنها محط الفائدة فى هذا السياق إمعانا فى الاحتجاج ، واكتفاء بما ينتهى إليه نظر الباصر فى ديارهم وأحوالهم وثقة بالحجة المسوقة ، كما تقول لصاحبك ألم تر كيف فعلت بفلان ؟ اعتمادا على أن فعلك به ظاهر لكل ذى بصر ، فلا يقول ذلك إلا واثق مطمئن ، والسياق لبيان قدرة الله على الحساب ، فصيغت الجمل على هيئة تكشف ظهور الحجة ووضوحها . فالآثار لا تكذب ، وهى باقية على مر العصور تنادى على قدرة الله على الحساب .

وقد ذكر علماؤنا أن الضمير فى مثلها ، إما أن يعود إلى القبيلة ،

فيكون المعنى التى لم يخلق مثل تلك القبيلة فى القوة وطول العمر ، وإما أن يعود إلى المدينة (إرم) فيكون المعنى التى لم يخلق مثل مدينة شداد فى جميع بلاد الدنيا[1] ، وكل مراد ، وهذا من اكتنازات التعبير القرآنى لمعان كثيرة بألفاظ قليلة . وكن على ذكر من أن هذه الصفة (التى لم يخلق مثلها فى البلاد) لم تقع فى قصة عاد قوم هود فى غير هذا الموضع فى الذكر الحكيم .

فهى من المعالم التى تنادى على اختصاص السورة بمقصد معين ، وتنادى على ما ذكرت لك من أن الحلقات الواردة فى كل سورة من قصص النبيين تتشكل بروح السورة ، وتتسم بسيما مقصدها .

ويؤيد ذلك ما تراه فى قوله تعالى بعد ذلك (وثمود الذين جابوا الصخر بالواد) وقد وردت تراكيب فى القصة تقاربها فى الذكر الحكيم مثل قوله تعالى فى ثمود قوم صالح (وتنحتون الجبال بيوتا) (الأعراف / ٧٤) وقوله : ﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين﴾ (الحجر / ٨٢) ، وقوله ﴿وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين﴾ (الشعراء / ١٤٩) وهى تراكيب تتناسب مع سياقاتها ومقاصد سورها ، والتراكيب الذى معنا فى هذه السورة الكريمة ـ كما قلت لك سلفا ـ يولى إبراز محط تفاخر ثمود كل عناية ، ألست معى أن هناك فرقا كبيرا ، بين تنحتون وجابوا فليس فى النحت ما فى الجوب ، إذ الجوب هو القطع ، وهو يستعمل فى قطع كل أرض ، وجواب الكلام هو ما يقطع الجوب، فيصل من فم القائل إلى سمع المستمع كما قال الراغب وأصحاب المعاجم[2].

---

(١) حاشية محيى الدين شيخ زادة ٤/ ٦٥٦ .

(٢) المفردات للراغب والمصباح ومختار الصحاح والمعجم الوسيط ولسان العرب مادة (جوب) .

ففى هذا التعبير من القوة ما ليس فى النحت ، وفيه إبراز لقوتهم ، وشدتهم وفيه إظهار لقدرة الله - عز وعلا - عليهم ، وهو الأنسب بمقصد السورة وبعنصر الاستدلال على الحساب ، وحذف من التعبير ما يبين كيفية عذابهم للنكتة التى ذكرتها لك فى تحليل حديث القرآن عن عاد قوم هود ، ثم تأمل كيف جاء بالمفعول به معرفا بالألف واللام إظهاراً لتمكنهم من هذه الصنعة وكشفا عن عظم قوتهم ، ولا تجد لفظ جابوا فى الذكر الحكيم كله فى غير هذا الموضوع ، تناسبا مع السياق الذى يتظاهر على إبراز قدرة الله على الحساب .

وقوله بالواد دون تحديد إشارة إلى أن أمر آثارهم فوق أن يحدد لذيوع اشتهاره ، وفى كل ذلك إبراز لقوة الحجة .

(وفرعون ذى الأوتاد) قال البقاعى كاشفا عن المناسبة «ولما بدأ بهؤلاء لأن أمرهم كان أعجب . . . ثنى بأقرب الأمم إليهم زمانا ، وأشبههم بهم شأنا . . . ولما ذكر القبيلتين من العرب ذكر بعض من جاورهم من طغاة العجم ، لما فى قصتهم من العتو والجبروت ، مع ما حوته من الغرائب ، وخوارق العجائب لا سيما فى القدرة على البعث بقلب العصاجته ، وإعادتها جماداً مع التكرار[1].

وهذا كشف رائع عن علة التناسب فى الجمع بين هذه القصص ، واصطفائها دون القصص الوارد فى الذكر الحكيم كله ؛ لاختصاصها بمزيد دلالة على قدرة الله على الحساب ، بما أورده من الحديث عن قوم ذوى إختصاص زائد دون بقية الأمم بمزيد إنعام وعظيم قوة ، وفائق جبروت .

---

(١) نظم الدرر ٨/٤١٥ وما بعدها .

وقد تأول العلماء معنى ذى الأوتاد على وجوه منها أن المراد بالأوتاد الأهرام أو الجنود والعسكر والجنات والعيون [1]، ويرى المراغى أن تشبيه الأهرام[2] بالأوتاد رائع لأن الأهرام تشبه الأوتاد المقلوبة[3] والتناسب الذى تسير السورة على لاحبه يرجح المعنى الأول ، إذ الاعتبار فى القصتين الماضيتين، فيه كبير عناية بما خلفوا من آثار ، وقد ورد هذا فى سورة ص فقط (كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد (ص/ ١٢) وورد تشبيه الجبال بالأوتاد فى موضع واحد (والجبال أوتادا) «النبأ/ ٧» فالأهرامات عند فرعون هى دليل العظمة وآية الجبروت ، وشخوصها الآن أمام الأعين آية على قدرة الله على هؤلاء الجبارين.

وقد قال برهان الدين البقاعى فى تفسير ذى الأوتاد أى الذى ثبت ملكه تثبيت من يظن أنه لا يزول بالعساكر والجنود وغيرهم ، من كل ما يظن أنه يشد أمره من الجنات والعيون ثم علل لهذا التركيب بقوله : «ولما كان المراد بفرعون هو وجنوده ، لأن الرأس يكنى به عن البدن ، لأنه جماعه وبه قوامه، وصفه بوصف يجمع قومه [4]» وكلامه ظاهر فى أن فى الكلام استعارة ، وهو ما صرح به العلماء عند تفسير آية سورة ص فقد ذكر البيضاوى ـ رحمه الله ـ أن (ذو الأوتاد) ذو الملك الثابت بالأوتاد ، قال الشيخ زاده : يريد أن أصل ذو الأوتاد أن يستعمل فى ثبات الخيمة . . . ثم استعير لثبات العز والملك وفرعون الذى ثبت ملكه ، واستحكم بالأوتاد ، شبه ملكه بالبيت المطنب استعارة

---

(١) فى ظلال القرآن ٦/ ٣٩٠٤ ، التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٢١ .

(٢) الكشاف ٤/ ٢٥٠ ، أضواء البيان ٩/ ٢١٥ ، ٢١٦ ، السراج المنير ٤/ ٥٣١ .

(٣) تفسير المراغى ٣٠/ ١٤٤ .

(٤) نظم الدرر ١/ ٤١٦ .

بالكناية ، وأثبت له الأوتاد تخييلا ، وإن أريد بالأوتاد جموعه تكون استعارة تصريحية [1].

وهناك تأويل آخر للأوتاد على حقيقتها على اعتبار ما كان يصنع فى تعذيب المؤمنين بالأوتاد ، لكن الألصق بالسياق هو اعتبار المراد بالأوتاد ، وما ترك من الآثار اتعاظا واعتباراً ، ويؤيده ما يردد اليوم من عجز العالم عن مثل هذه الحضارة - الأهرامات وغيرها ، فقد رسخ الأذهان قوة هؤلاء الفراعنة ، وتقدمهم وغاب عن غير المؤمنين ما تذكر به هذه الآثار من قدرة الله عليهم إذ كفروا وعتو وطغوا ولعل مما يرشح لذلك قوله تعالى : **﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ..﴾** (يونس / ٩٢) .

﴿الذين طغوا فى البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب﴾ جاء هذا الوصف للمذكورين جميعا ، ومن أجل ذلك جاء بالاسم الموصول ، وفى ذلك إتاحة لذكر جملة الصلة التى تكشف عن سبب تعذيبهم، وأثر الطغيان كشفا عن تغلغل فسادهم كل أنحاء بلادهم ، والطغيان هو مجاوزة الحد فى العصيان ، وجاءت الجملة بعدها معطوفة بفاء التعقيب ؛ إيماء إلى أن فسادهم لاحق طغيانهم دون مهلة وهذا كاشف عن إصرارهم البالغ، ثم تأمل ما يكشف عنه حرف الوعاء (فى) فى قوله (فى البلاد - فيه) من تغلغل الفساد والطغيان فى بلادهم واستشرائه وعمومه .

(١) حاشية محيى الدين شيخ زادة ٤/ ١٧٥ .

ثم جاءت آية شاملة كل أنواع العقاب ، وصور لك تعاقب الفاءين قوة أخذ الله لهم ، وشدة قهره لهم ؛ تناسبا مع قبيح صنيعهم ، وكشفا عن عموم هذا العذاب وتغطيته كل جزء من بلادهم ؛ لذا كانت الاستعارة هى الطريقه الألصق بهذا السياق ، ولم ترد كلمة سوط فى غير هذه السورة الكريمة ؛ تناسبا مع هذا السياق ، فقد عبر عن إنزال العذاب بهم بالصب «للإيذان بكثرته واستمراره وتتابعه ، فإنه عبارة عن إراقة شئ مائع ، أو جار مجراه فى السيلان كالرمل والحبوب ، وإفراغه بشدة وكثرة واستمرار[(١)]» ففى هذا التعبير استعارة مكنية ، فقد استعمل الصب ، وهو خاص بالماء ؛ لاقتضائه السرعة فى النزول على المضروب [(٢)].

أنت تحس أن هذه الاستعارة صورت تمام إحاطتهم بالعذاب ، وإظهار قهر الله وجبروته ، وهو ما يتناسب مع مقصد السورة الذى هو الاستدلال على الإياب والحساب .

والسوط لفظ شاع استعماله فى الجلد المضفور ، الذى يضرب به ، وإن كان فى الأصل اسما للخلط والمزج ، فيمكن أن يكون فى السوط استعارة ، شبه ما خلط لهم من أنواع العذاب بالسوط فى التخالط والتضافر «وإنما خص السوط بأن يستعار للعذاب ؛ لأنه يقتضى من التكرار والتردد ما لا يقتضيه السيف ولا غيره [(٣)]» والتعبير ـ كما ترى ـ «يوحى بلذع العذاب حين يذكر

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٩/١٥٥ ، ١٥٦ ، التحرير والتنوير ٣٠/٣٢٢ .

(٢) إعراب القرآن وبيانه ١٠/٤٧١ ، مفاتيح الغيب ١٦/٣٩٩ ، غرائب القرآن ١٢/٨١.

(٣) فى ظلال القرآن ٦/٣٩٠٤ .

السوط ، وبفيضه وغمره حين يذكر الصب ، حيث يجتمع الألم اللاذع ، والغمرة الطاغية على الطغاة الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد[1] ثم تأمل ما تفيض به هذه الكلمة (ربك) من الطمأنينة وتمام حماية الله لأوليائه .

﴿إن ربك لبا لمرصاد﴾ هذا جواب القسم على ما رجحته قبل ذلك ، وهذا التركيب من خصائص هذه السورة الكريمة ، والإرصاد والرصد ذكرا فى مواضع[2] آخر من الذكر الحكيم ، إلا أن الإسناد فيها ليس لله ـ عز وعلا ـ.

وهذا التركيب مع أنه يفيض بالتهديد والوعيد للكافرين ، فهو يفيض طمأنينة للمؤمنين ، فهو راصد لا يفوته شئ ، فليهدأ بال المؤمن ولينم ملء جفونه ، فإنه من وراء الفساد مهلك أصحابه ، ومدمر عتاته وطغاته وقد جاء جواب القسم مؤكدا بهذه التوكيدات تلاؤما مع حال المنكرين الذين يمارون فى الساعة والحساب ، وقد ذكر الأئمة أن هذا التركيب من باب الاستعارة التمثيلية، حيث شبه حاله ـ سبحانه ـ فى كونه حفيظا لأعمال العباد ومجازيا عليها على النقير والقطمير ، ولا محيد للعباد عن موقف حسابه إلا إليه بحال من قعد على طريق السابلة يترصدهم ، ليظفر بالجانى أو لأخذ المكس ، أو نحو ذلك ولا مخلص لهم عن المرور عليه ، فأطلق على الحالة المشبهة ما يعبر به عن الحالة المشبه بها ، وقد روى الزمخشرى عن بعض العرب ، أنه قيل له : أين ربك ؟ فقال : بالمرصاد [3].

---

(١) المحرر الوجيز ١٦/ ٢٩٦ .

(٢) سورة التوبة ٥ ، ١٠٧ ، الجن ٩ ، ٢٧ ، النبأ ٢١ .

(٣) الكشاف ٤/ ٢٥١ ، أنوار التنزيل ٢/ ٥٥٧ ، إرشاد العقل السليم ٩/ ١٥٦ ، حاشية محيى الدين شيخ زادة ٤/ ٦٥٧ ، حاشية الصاوى ٤/ ٣١٥ ، الفتوحات الالهية ٤/ ٥٣٢ تفسير جزء عم / ٦٢ ، إعراب القرآن وبيانه ١٠/ ٤٧١ ، ٤٧٢ .

وكلامهم هذا جار على أن المرصاد اسم مكان ، ولأنه ـ سبحانه ـ منزه عن المكان فمن أجل ذلك قالوا بالاستعارة ، لكنه قد ذهب قوم إلى أن المرصاد صيغة مبالغة عبر بها عن اسم الفاعل ، وأصل الكلام : إن ربك لبا لمرصاد ، قال ابن عطية ، ورده أبو حيان احتجاجا بدخول الباء ؛ لأنه لو كان المعنى كذلك لما دخلت الباء ، ولو قيل إنها زائدة يرد ذلك بأنّ ما هنا ليس من مواضع زيادتها [1]،وهذا أيضا فرار من القول بالمبالغة فى أفعال الله ـ سبحانه ـ وصفاته ، من أجل ذلك قالوا إنها اسم فاعل جاء على هيئة صيغة المبالغة وإن كان الأمر كذلك فلم جاء على صيغة المبالغة ؟ وهل وراء ذلك أسرار ونكات ؟

ويحتمل أن يكون اسم زمان أيضا ، وقد ذهب ابن عاشور إلى أن اللام فى (المرصاد) لام الجنس ، وذكر أن ذلك يفيد عموم المتعلق أى بالمرصاد لكل فاعل ، فهو تمثيل لعموم علم الله ـ تعالى ـ بما يكون من أعمال العباد وحركاتهم ، بحال اطلاع الرصد على تحركات العدو والمغيرين ، وهذا المثل كناية عن مجازاة كل عامل بعمله ، إذ لا يقصد الرصد إلا الجزاء على العدوان[2]، وفى ذلك إيحاء أيضا ، بأن الله لا يظلم أحدا إذ هو يحصى كل شئ بالحقائق لا بالظواهر .

والظاهر أن هذا التركيب جاء على هذا النحو تخويفا وترهيبا دون أن تدخل فى معمعان هذه التأويلات ، التى تقف الآراء الكلامية من خلفها توجهها ، وربما يكون ذلك هو ما دفع ابن عطية إلى تأول المرصاد بالراصد على أى حال فالكل من علمائنا إلى قبلة واحدة فى هذا الأمر ، وهى تنزيه

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٧٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٣٢٣ .

الذات العلية عن مشابهة الحوادث فهى غايتهم جميعا ، وإن اختلفت بهم السبل إلى هذه الغاية .

هذا وقد استقر عند القرطبى أن الجواب القسم هو هذه الآية الكريمة تأمل قوله : وفى الكلام تقديم وتأخير ، أى : والفجر وكذا وكذا إن ربك ... (١) وربما يكون ما جاء عليه هذا التركيب من التوكيدات مرجحا لكونه جواب القسم ، وذكرت لك قبلا أن كثرة الاحتمالات فيها إثراء للمعنى ، وربما يكون النظم القرآنى قد عمد إلى ذلك .

وقد رأيت مطلع السورة الكريمة ، وكيف تحدر المقصد فيه تحدرا بديعا ، بإثبات الإياب بحجج عقلية لاراد لها عند من له أدنى بصر ، وكيف أفادت الآيات الأولى إثبات الحساب بالفحوى ، ثم تعلقت بها الآيات الأخرى التى توفرت على الاستدلال على الحساب ، وكيف سبقت الحجج ظاهرة ، بما للسورة الكريمة من الاختصاصات اللفظية والتركيبية التى حاولنا كشفها باستحضار ما يقاربها فى مواضع أخر من الذكر الحكيم ، فقد تحرك المعنى فى المطلع تحركا متتابعا بدأ بجذر المقصد (الإياب) ثم بعوده وهو (الحساب) ثم وقع جواب القسم فى نهاية المطلع بهيئة الكلام التى حدثناك عنها ، فظهر المقصد كفلق الصبح ، بعد أن تحرك المعنى حركتين متتابعتين من خلال تدبر أحوال الكلام ثم تحدر المعنى بعد ذلك ؛ كشفا عن أسباب الغفلة عن الإياب والحساب، ومظاهرها مع الإنسان بعامة بعد الحديث عن أقوام مخصوصين كان لهم مزيد اختصاص بكثير فساد ، وبالغ طغيان .

فجواب القسم بمثابة معبر للمعنى من الحديث الخاص إلى الحديث العام؛

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٧٣٨٦ .

لذا تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن فى (إن ربك لبالمرصاد) وكما ارتبط هذا البيان لمصير الطغاة بالآية قبله . . . يرتبط بالآيات بعده على وجه الغطة والاعتبار فى الإنسان المبتلى بالنعمة أو بالحرمان (١).

ويعقد الأستاذ سيد قطب الآيات التالية بالآية الكريمة ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ بقوله : «يرمى ويحسب ويحاسب ويجازى ، وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولا يظلم ، ولا يأخذ بظواهر الأمور ، لكن بحقائق الأشياء . . فأما الإنسان فتخطئ موازينه ، وتضل تقديراته ، ولا يرى إلا الظواهر ما لم يتصل بميزان الله (٢)، وهذا وجه آخر من وجوه التقاط الصلة بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة .

وذكر المفسرون أن قوله : ﴿فأما الإنسان﴾ متصل بقوله : ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ كأنه قيل : إنه لبالمرصاد ومن الآخرة ، فلا يريد إلا السعى لها ، فأما الإنسان فلا يهمه إلا الدنيا ولذاتها (٣). وذلك لأن الفاء معلم ظاهر على الارتباط بين الآيات .

وواضح أن التناسب ظاهر إذ التقسيم هنا تقسيم للإنسان الغافل عن الحساب والإياب وهو من نعمة ربه على نوعين نوع مبتلى بالإنعام فهو به فرح مفاخر مدع أن سبب إنعام ربه عليه حبه له ، وآخر محروم مدع أن سبب حرمانه إهانة الله له . فهو غافل فى الحالين ، ومتخبط فى التأويلين وهو

---

(١) التفسير البيانى / ١٤٩ .

(٢) فى ظلال القرآن ٦/ ٣٩٠٤ ، ٣٩٠٥ .

(٣) الكشاف ٤/ ٢٥١ ، أنوار التنزيل ٢/ ٥٥٧ ، إرشاد العقل السليم ٩/ ١٥٦ ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى بهامش الطبرى ١٢/ ٨١ ، حاشية محيى الدين شيخ زاده ٤٥/ ٦٥٧ وفتح القدير ٥/ ٤٣٨ .

تقسيم يتناسب مع مقصد السورة الكريمة وروح معناها ، ألا ترى أن الإنعام بدل أن يكون آية تدبر للغابرين (من قوم عاد وثمود وفرعون) كان سببا عظيما من أسباب طغيانهم وجبروتهم . فجاء تقسيم الإنسان من نعمة ربه متواصلا مع قصص الغابرين ، ناظرا إلى تراكيب الكلام هناك .

﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن﴾ «دلت الفاء على أن الكلام الواقع بعدها متصل بما قبلها ، ومتفرع عليه لا محالة . ودلت (أما) على معنى : مهما يكن من شئ ، وذلك أصل معناها ، ومقتضى استعمالها ، فقوى بها ارتباط جوابها بما قبلها ، وقبل الفاء المتصلة بها ، فلاح ذلك برقا وامضا ، وانجلى بلمعه ما كان غامضا ، إذ كان تفريع ما بعد هذه الفاء على ما قبلها خفيا فلنبينه بيانا جليا [1]، ذلك أن الكلام السابق اشتمل على وصف ما كانت تتمع به الأمم الممثل بها ، مما أنعم الله عليها به من النعم ، وهم لاهون عن دعوة رسل الله ، ومعرضون عن طلب مرضاة ربهم . . . وقد تضمن هذا الوهم أصولا انبنى عليها ، وهى : إنكار الجزاء فى الآخرة ، وإنكار الحياة الثانية ، وتوهم دوام الأحوال ، ففاء التفريع مرتبطة بجملة (إن ربك لبالمرصاد) بما فيها من العموم [2].

والملحوظ أن البناء هنا جاء بأما التى تفيد التفصيل غالبا ، وعقدت الفاء هذا التفصيل بالكلام السابق ، قال ابن عاشور : وهذا التفصيل ليس من قبيل تبيين المجمل ، ولكنه تمييز وفصل بين شيئين ، أو أشياء تشتبه أو تختلط[3] ألا تلمح أن التركيب بهذه الهيئة التى لحظها ابن عاشور ينادى على مطلع السورة الكريمة ، وأنه بالرغم من أن الحديث عن ابتلاء الإنسان ورد فى مواطن متعددة

(١) ألا تبصر معى فرح الشيخ بكشف صلة الارتباط ، وهو فرح من عانى وكابد البحث حتى أبصر ، ومن ذاق عرف بعد الكشف وصعوبته ، وقد آثرنا نقل كلامه على طوله لشديد ارتباطه بموضوع بحثنا .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٣٢٥ .

(٣) السابق ٣٠/٣٢٩ .

من الذكر الحكيم [١]، إلا أنه ليست فيه هذه السمة الواضحة الاتصال بقوله (والفجر) وأنت العليم بأن الفجر وقت اشتباه الليل والنهار، واختلاطهما ، وقد جاء بالإنسان معرفا ، وبهذا اللفظ الذى تستحضر به النسيان ؛ لأن هذا اللفظ أحسن تلاؤما من غيره فى هذا السياق ، وتعريفه بلام الجنس ، ناسب القرآن الكريم فى انتقاله من الحديث الخاص إلى الحديث العام ، وقد وقع التعبير بإذا تحققا لوقوع الشرط ، وزيدت ما صناعة [٢]؛ تأكيدا لوقوع الابتلاء ، والأنسب فى هذا السياق ذكر لفظ الربوبية لا الألوهية ، لأن الحديث عن الإنعام .

ثم وقع الفعل بعد ذلك (فأكرمه ونعمه) معطوفا بالفاء ؛ إيذانا بأن هذا وقع متعاطيا من غير تراخ ، وعبر بالإكرام كشفا عن الإجزال فى العطاء ، ويؤيده وورد الفعل المعطوف عليه مضعفا (ونعمه) لا ثم جاء خبر المبتدأ مقرونا بالفاء ، لما فى أما من معنى الشرط ، وتوسط إذا ومدخولها فى حكم التأخير[٣] مبادرة بذكر سبب الغفلة ، لكن الفاء أخرت ليكون على لفظ الشرط والجزاء[٤] لأن أسلوب التعليق يفيد تردد الجواب بحسب وقوع الشرط وفى قوله (فيقول) إيحاء بتجدد ذلك من الإنسان وتكرار وقوعه ، ولأن السياق للذم استشكل كيف يذم الإنسان على قوله (أكرمنى) مع أنه صادق فى هذا والجواب أن المراد به من يقول ذلك مفتخرا على غيره ، ومتطاولا به عليه ، ومعتقدا استحقاق ذلك على ربه[٥] ثم جاء بعد ذلك ما يقابل هذا الصنف ،

---

(١) سورة يونس / ١٢ ، هود / ١٠ ، الاسراء / ١١ ، ٨٣ ، الزمر / ٨/ ٤٩ : ٥١ ، المعارج / ٢١ .

(٢) أى لا عمل لها فى الإعراب ، ولكن لها إضافة فى المعني .

(٣) مسائل الرازى وأجوبتها ٥٣١ .

(٤) الكشاف ٤/ ٢٥٢ .

(٥) البرهان ٢٩٤ .

والمقابلة هنا خير وسيلة بيانية للكشف عما يشتبه ويختلط من الأمور .

﴿وأما إذا ما ابتلاه... ﴾ وقد ذكروا إشكالا ، هو أنه كان حق التوازن أن يتقابل الواقعان بعد أما وأما ، فكما صدر ما بعد أما الأولى بالاسم ، كان حق التوازن أن يصدر ما بعد أما الثانية بالاسم ، لكنها جاءت مصدر ما بعدها بالفعل ، وأجيب عن ذلك بأن التقدير : وأما هو إذا ما ابتلاه[1] لأن ما سبق يدل عليه ، وهو معلم ظاهر على ترابط الآى ؛ إلماعاً إلى أن الصنف المتحدث عنه فى الابتلاء بالتضيق ، هو نفسه المتحدث عنه فى التوسعة .

وتراه هنا كنى بقوله (فقدر) عن التضييق ، مقابلة لما كنى به فى مقابله (فأكرمه ونعمة) عن التوسعة ، وترى هنا جواب الإنسان غير مشاكل ، كما رأيته فى مقابله ؛ كشفا عن أن تضييق الرزق يكون إهانة فى نظر العبد ، كما أن الإكرام بالتوسعة كان إكراماً فى نظره قبل ذلك ؛ كشفا عن قصور نظره وسوء فكره لأنه لو كان الفعل على ما يظن الإنسان لكان الكلام : وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فأهانه فيقول ربى أهاننى .

وفى الآية مع ما بعد شمة من أسلوب قوله تعالى : ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً إذ امسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا﴾ كما ذكر علماؤنا [2] ، وقولهم شمة يوحى بتقارب المعانى فى الموضعين ، كما يوحى باختصاص الآيات هنا بسمات تميزها عن أخواتها مما فيها من نور السياق ، وقد ذكر الأستاذ سيد قطب أيضا أن هذه الآيات فيها بيان لتصورات الإنسان غير الإيمانية ، وقيمه غير الإيمانية ، وهى ذات لون خاص فى السورة تعبيرا

(١) الكشاف ٤/ ٢٥٢ ، والانتصاف فيما تضمنه الكشف من الاعتزال فى الموضع نفسه .
(٢) روح المعانى ٣٠/ ١٢٦ تفسير جزء عم للإمام محمد عبده / ٦٣ .

وإيقاعا[1].

وهو كلام يحتاج إلى شرح وإيضاح ، ويوجب أن تنظر فى كل الآيات المتقاربة مع هذه الآيات ، وهى يترتب المصحف الشريف هكذا . قال تعالى :

﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ (يونس/ ١٢) **﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور﴾** (هود/ ١٠) .

﴿ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا ﴾ (الإسراء/ ١١) **﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشركان يئوسا﴾** (الإسراء / ٨٣) **﴿وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار ﴾** (الزمر / ٨) .

﴿ فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ (الزمر/ ٤٩) .

﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط . ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ . وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ (فصلت/ ٤٩ : ٥١) .

---

(١) فى ظلال القرآن ٦/ ٣٩٠٢ .

والآيات التى سبق ذكرها من سورة المعارج ، هذا بالإضافة إلى ما جاء كذلك فى الذكر الحكيم مذكورا بلفظ الناس قال تعالى ﴿**وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذالهم مكر فى آياتنا قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون**﴾ (يونس / ٢١) ﴿**وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون**﴾ (الروم / ٣٣) .

﴿ **وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون**﴾ (الروم/ ٣٦) هذا غير الآيات التى وردت بالفحوى .

والذى يعنينا هنا من إيراد هذه الآيات هو إبصار سمات الآيات الواردة فى سورة الفجر .

وأول ما نجد أن سورة الفجر اختصت بأن التوسعة والتضييق على وجه الابتلاء تصريحا ، والآيات الأخر أشارت إلى الابتلاء تلويحا : أن الأمر هنا قائم على التقسيم ، وفى كل الآيات الآخر قائم على الترتيب ، والتقيم هو الذى يتناسب مع مطلع السورة الكريمة هنا ، فقد ذكر ابن عاشور : أن التفصيل هنا ليس من قبيل تبيين الجمل ، ولكنه تمييز وفصل بين شيئين ، أو أشياء تختلط وتشتبه[1] والفجر أشبه وقت بالاشتباه أو الاختلاط .

ثالثا : أن الابتلاء هنا مخصوص بالرزق فى الحالين ، وليس عاما كما فى الآيات الأخرى ، ذلك أن المال من أقوى أسباب الطغيان وأعلاها ، وهو أشبه شئ بحال الذين طغوا فى البلاد ؛ لذا تراه عبر عن الحالة هنا فى السور الأخرى بالخير ، أو بالإنعام ، أو بالرحمة ، أو بكشف الضر ، وهى تعبيرات تناسب سياقاتها ، كذلك تراه عبر عن الحالة الثانية هنا فى السور الأخرى

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢٩/٣٠ .

بالنزع أو بالشر أو بالضر تأمل قول ابن عاشور «واقتصار الآية على تقتير الرزق فى مقابلة النعمة دون غير ذلك من العلل والآفات ؛ لأن غالب أحوال المشركين المتحدث عنهم صحة المزاج ، وقوة الأبدان ، فلا يهلكون إلا بقتل وهرم فيهم وفى ذويهم [1].

رابعا : أن الحديث عن ابتلاء الإنسان فى سورة الفجر جاء معقوداً بما بعده على هيئة التصعيد من القبيح إلى الأقبح ، فقد بينت آيات الابتلاء سوء أقوال الإنسان ، وأتبعها سوء أفعاله ، وذلك لا تجده فى المواضع الأخر ، ولأن الحديث عن الابتلاء بالمال ، اصطفى قرآن من قبيح الأفعال هنا ما هو متعلق بالمال ، فلم يذكر الزنا ، ولا قطع الطريق ولا القتل ولا غير هذا . وهو ما يفسر لك اختصاص السورة بالحديث عن هذه الفعال القبيحة ، فكما حمل المال البائدين من عاد وثمود فرعون على الطغيان كذلك يحمل الإنسان على الطغيان ، وتعرف أنت على ما أعطاه الله لهذه الأمم من المال فى الذكر الحكيم .

هذا وإذا أردت أن تكون قناعتك كفلق الصبح بأن آيات ابتلاء الإنسان هنا لها سمة خاصة عما يقاربها فى الذكر الحكيم ، فقارن بين التراكيب هنا ، والتراكيب فى المواضع الأخرى ، ولا تهمل سياقات الآيات فى كل ، فإن السياقات والمقاصد تكمن فيها علل التراكيب وأسرارها ، وتفتح لك الباب إلى مستسر التراكيب فى الذكر الحكيم . وهو ما لا يتسع له المقام هنا ؛ لكثرة الآيات المتقاربة ، ولكثرة سياقاتها واتساع مساحتها كذلك . وإنما نستقصى فيما قلت مقارباته . وحسبنا هنا أن نضع اليد على علة اختصاص الأسلوب فى الحديث عن الابتلاء بسياق سورة الفجر .

(١) السابق ٣٢٥/٣٠ .

ولك أن تلمح علو نبرة الترهيب فى دقائق التراكيب هنا ، كما تلمح الإلماع إلى أن التوسعة فى الرزق هنا توسعة فسيحة ، من ذلك أنك ترى قول الإنسان (ربى أكرمنى) وهو ما يسمى بتقديم المسند إليه على خبره الفعلى ، وهو يوحى إليك ببسط الرزق وسعته ، أضف إلى ذلك التعبير بالإكرام ، وما يوحى به من الإجزال ، وهذا أدعى إلى اغترار الإنسان بربه ، فإعطاء المال هنا بلا حدود ، لدرجة جعلت الإنسان يقول بلا تردد (رب أكرمنى) ، كما تلاحظ أيضا أن كلمة الرزق هنا أضفى عليها سياق سورة الفجر اختصاصا ، فهى هنا يقصد بها المال .

وترى فى مقابل ذلك (فقدر عليه رزقه) ولم يقل : فقدر عليه الرزق لأن هذه الإضافة ، توحى أن ضيق الرزق ليس فى الإمساك عن الإنعام على الإنسان فحسب ، وإنما التضييق يكون فى الرزق الموجود ، بنزع كل بركة منه، هذا ما توحى به الإضافة ، وفيه رائحة الترهيب ، كما أن فيه إيحاءاً باغترار الإنسان ، إذ من كرم ربه له أن قدر عليه الرزق فجعله على قدر حاجته دون زيادة ، ولو أهانه لنزع منه الرزق كله ، وهذه فائدة التعبير بقدر على التعبير بنزع ، وكذلك لا يعبر بقتر ولا ضيق لأن كل ذلك يوحى بأن الرزق دون الحاجة . فلكل كلمة مقامها وسياقها .

لذا قال الرازى : ـ رحمه الله ـ «فإن قيل : كيف قال الله تعالى (فى الجملة الأولى (فأكرمه) ولم يقل فى الجملة الثانية : فأهانه ؟ قلنا : لأن بسط الرزق إكرام لأنه إنعام وإفضال من غير سابقة ، وقبضه ليس بإهانة ؛ لأن ترك الإنعام والإفضال ، لا يكون إهانة ، بل هو واسطة بين الإكرام والإهانة إلى أن يقول : وتضييق الرزق ليس إلا عبارة عن ترك إعطاء القدر الزائد ، ألا ترى

أنه يحسن أن تقول : أهاننى إذا لم يهد لك [1]، . ثم تأتى الآيات بعد ذلك كاشفة عن سوء أفعالهم ، بعد الحديث عن قبح أقوالهم .

قال تعالى : ﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما﴾ .

جاءت «كلا» متصدرة هذه الآيات ، وهى معلم ظاهر على معاقد الكلام فهى هنا للردع والزجر ، ولا يدخل لها معنى آخر هنا [2]؛ لما سبقها من الحديث عن ظن خاطئ من الإنسان ، وقد قال جماعة : متى سمعت كلا فى سورة فاحكم بأنها مكية ، لأن فيها معنى التهديد والوعيد ، وأكثر ما نزل ذلك بمكة ، لأن أكثر العتو كان بها [3].

ولأن معناها الزجر قال العلماء : (كلا) ردع للإنسان عن قوله ، ثم قال: بل هناك شر من هذا القول ، وهو أن الله يكرمهم بكثرة المال ، فلا يؤدون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم ....[4]ثم جاءت بعدها (بل) وهى للإضراب الانتقالى فالكلام «انتقال وترق من ذمه بالقبيح من القول إلى الأقبح من الفعل»[5] وقد ذكر الأستاذ سيد قطب أن هذه المجموعة من الآيات رد على تصوراتهم الخاطئة فى الآيات الماضية ، وهى عنده تشمل لونين من ألوان العبارة والتنغيم ، وهذه الآيات عنده بمثابة «قنطرة بين تقرير حالهم ، وما ينتظرهم فى مآلهم ، فقد جاء بعده : كلا إذا دكت الأرض دكا دكا .. فهو

---

(١) مسائل الرازى وأجوبتها ٥٣١ .

(٢) لأن من معانيها (حقا) أو (إى ونعم) كما ذهب العلماء فليس معناها الردع فى مثل قوله تعالى : ﴿كلا إن الإنسان ليطغى﴾ ولا قوله تعالى ﴿كلا بل تكذبون بالدين﴾ .

(٣) مغنى اللبيب ١/ ١٨٨ .

(٤) الكشاف ٤/ ٢٥٢ ، أنوار التنزيل ٢/ ٥٥٨ ، القرطبى ١٠/ ٧٣٨٨ .

(٥) روح المعانى ١٥/ ١٢٧ ، فتح القدير ٥/ ٤٣٩ .

وسط فى شدة التنغيم بين التقرير الأول ، والتهديد الأخير [١].

والذى قاله ـ رحمه الله ـ فيه نظر لإيقاع الآيات ،ولا يشرح ذلك شرحا وافيا إلا الدراسة الصابرة لأصوات السورة القرآنية ، وكل ما يظهر فى تراكيب الآيات وفى إيقاع الأصوات توابع لحركة المعنى فى السورة .. وكل ما حكى من أقوال العلماء كشف لارتباطات الآيات بالسابق واللاحق من السياق .

وقد ذكر الطاهر بن عاشور أن المناسبة مناسبة مقابلة لمضمون (فأكرمه. . .) من جهة ما توهموه أن نعمة ما لهم ، وسعة عيشهم تكريم من الله لهم [٢]ويمكن أن يكون ما جاء بعد الردع والإضراب كشف عن سبب سعة الرزق وضيقه ؛ كذا قال البقاعى بعد أن بين أن الأسلوب يشعر بالتوبيخ قال ردعا عن مثل هذا القول بأعظمأدوات الزجر معللا للتوسعة والإقتار . . .[٣] ذا وقد ورد الحديث عن اليتيم والمسكين والتراث فى مواطن أخرى من الذكر الحكيم ، والذى يهمنا هنا هو محاولة الكشف عن الخصائص الأسلوبية فى حديث القرآن الكريم عن اليتيم والمسكين والتراث فى سورة الفجر ، وماذا فيه من نور السياق .

ورد الحديث عن اليتيم والمسكين فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ، وغالبا ما يؤتى بهما فى سياق واحد ، وقد جاء ذكر اليتيم واليتامى فى القرآن فى واحد وعشرين موضعا[٤] غير موضع سورة الفجر ، وجاء ذكر المسكين

---

(١) فى ظلال القرآن ٦/ ٣٩٠٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٣٢ .

(٣) نظم الدرر ٨/ ٤١٩ .

(٤) سورة البقرة / ٨٣ ، ١٧٧ ، ٢١٥ ، ٢٢٠ ، النساء/ ٢ ، ٣ ، ٦ ، ٨ ، ١٠ ، ٣٦، ١٢٧ ، الأنعام / ١٥٢ ، الأنفال / ٤١ ، الإسراء/ ٣٤ ، الكهف ٨٢ ، الحشر / ٧ .

والمساكين فى اثنين وعشرين موضعا غير موضع سورة الفجر ، وبالرغم من كثرة ورودهما إلا أن سورة الفجر لها خصائصها فى الحديث عن هذين الصنفين من الضعفاء .

فنبرة التوبيخ هنا عالية ، فلا يعنى قوله : (كلا بل تكرمون اليتيم) أنهم يطعمون اليتيم والعيب عليهم فى عدم إكرامه ، بل يعنى هذا أنهم لم يفكروا فى إعطائه فضلا عن أن يفكروا فى إكرامه ، غير أنه أتى بالأسلوب كذلك إمعانا فى الذم ، وزيادة فى التوبيخ والتقريع، والقرينة على ذلك أن الإنسان لا يذم لعدم الإكرام ، وإنما يذم لمنع العطاء .

وجاء بالأسلوب كذلك تلاؤما مع قوله (فيقول ربى أكرمنى) فلقد كان الأحرى بهم وقد أقروا بالإكرام ، وبناء الأسلوب يوحى بتأكد اعترافهم بالإكرام، كان الأحرى بهم أن يكرموا اليتيم ، غير أنهم لم يفعلوا هذا ولا ما دونه ، وهو ما لا تراه فى المواقع الأخرى لليتيم فى الذكر الحكيم ، والألف واللام فى اليتيم للجنس ، ويؤيده أنه قال فى حق المسكين (ولا تحاضون) ولم يقل : ولا تطعمون فإن «نفى الحض على طعام المسكين نفى لإطعامه بطريق الأولى ، وهى دلالة فحوى الخطاب ، أى لقلة الاكتراث بالمساكين لا ينفعونهم ولونفع وساطة [1]، ويقوى هذا أنه قرئ (تحاضون) الأصل وتتحاضون لكنه حذف إحدى التاءين تخفيفا ، مما يدل على أنهم لم يفعلوا أقل أنواع البر تجاه المسكين ، فالأسلوب كله يجرى على هذه السنة فى التنبيه على الأعلى بالأدنى.

ملحوظ أن لفظ (يكرم) لم يقع فى أى موضع فى حديث القرآن عن اليتيم ، ومما يزيدك بصرا بروح التهكم عليهم أن الإكرام جاء مقابلا لقوله قدر

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣٣٣ .

عليه رزقه ، وسبق أن عرفت أن قدر أى أعطاه على قدر حاجته دون نقص أو زيادة - ومناط التهكم أن الأسلوب يوحى بالنظر إلى هذا السياق أنهم أعطوا اليتيم على قدر حاجته دون نقص أو زيادة ، وهم لم يفعلوا هذا ولا فوقه بالنظر إلى حديث السورة عن المسكين ، ولم تقع كلمة (يحصن) إلا فى سورتى الحاقة والماعون فى حديث القرآن عن المسكين ، ومع ذلك تختص سورة الفجر بصيغة المفاعلة بالتخفيف الذى ذكرته له ، فإن كان عدم الإكرام وعدم التحاض مستقبحين ، فما بالكم بأقبح منه .

المهم أن كل ذلك يدل على تفاحشهم فى المعصية ، وتباهيهم فى إتيانها، وهو ما يتلاءم مع حديث السورة عن الطغيان والفساد ، وهذه الحلقة من الآيات بمثابة العلة من معنى السورة ، وهى جواب عن سؤال لماذا يكون الحساب والإياب ؟ وما أفلحت أمة هلك ضعفاؤها ، وضاع أيتامها ومساكينها، وكلها جرائم متعلقة بالمال كما ذكرنا ، لأنه سبب الطغيان والفساد فى الأرض.

هذا وقد جاءت الآيات بطريق الخطاب ، بعد أن كان الأسلوب بطريق الغيبة فى قوله : ﴿فأما الإنسان ...﴾ «لقصد مواجهتهم بالتوبيخ ، وهو بالمواجهة أوقع منه بالغيبة ، وفى ذلك تشديد للتقريع ، وتأكيد للتشنيع [١]»

يا للعجب كيف يقرون بالإكرام ولا يكرمون ، وكيف يدعون الإهانة ، وقد أعطوا على قدر حاجتهم ، وقد منعوا هم فلم يعطوا قليلا ولا كثيرا ، ولم يكونوا واسطة لفعل ذلك لا قليله ولا كثيره .

وقد تعانقت آيتا الحديث عن اليتيم والمسكين تعانقا بديعا يدل على قوة ارتباطهما ؛ فقد حصل فى الآية احتباك ، لأنهم لما نفى إكرامهم اليتيم ،

(١) حاشية محيى الدين شيخ زاده ٦٥٨/٤ فتح القدير ٤٣٩/٥ روح المعانى ١٢٧/١٥ التحرير والتنوير ٣٣٣/٣٠ .

وقوبل بنفى أن يحضوا على طعام المسكين ، علم أنهم لا يحضون على إكرامهم أيتامهم ، أى لا يحضون أولياء الأيتام على ذلك ، وعلم أنهم لا يطعمون المساكين من أحوالهم [1]، وشئ آخر هو أن الذى يحض على شئ يكون راغبا فى التلبس به ، فدل بناء الأسلوب على انتفاء رغبتهم فى هذه الأفعال الحميدة أصلا ، وهذا الاحتباك الذى أشار إليه ابن عاشور ليس موجوداً فى أى موقع من مواقع حديث القرآن عن اليتيم والمسكين ، وهو مما يؤكد رائحة التهكم التى ذكرناها ، وليس التهكم بعيدا عن الأسلوب ، فالالتفات فيه توبيخ لهم كما ذكرنا .

ثم تحدث القرآن عن خسيسة أخرى لهم «وتأكلون التراث أكلا لما . . . .» وبناء الأسلوب جاء على طريقة توحى بتهالكهم على المال ، واستبعاده إياهم ، فعبادتهم المال تعميمهم عن تحرى جمع المال من حرام أو من حلال ، وماذا تنتظر أنت من جمع مال فاسد غير متحرى فيه ؟ ما من ريب أنك تنتظر كل فساد وتتخيل كل طغيان ، وهذا الأسلوب هو الألصق بحال الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد .

وقد جاء الأسلوب بطريق الاستعارة ، أى انتفعوا به انتفاعا لا يبقى منه شيئا ، وقد ذكر ابن عاشور أن هذه الاستعارة من مبتكرات القرآن [2]، وهو كلام يحتاج إلى نفض كلام الجاهليين شعرا ونثرا لتأكيد هذه النتيجة ، والبحث فى مبتكرات القرآن فى الاستعارة أو الكناية أو التشبيه باب عظيم النفع صعب المسلك .

والتعبير (تأكلون) أيضا يشعر بأنه تراث لا حق لهم فيه ، وهذه

(١) التحرير والتنوير ٣٣٣/٣٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٣٤/٣٠ .

الاستعارة تصورهم لك قوما انكبوا على طعام ، وقد أعماهم الجوع فراحوا يلتهمون الطعام التهاما يعميهم عم كل خبث فيه ، وهذا التعبير يتناسب مع التعبيرات السابقة فقوم يمنعون اليتيم والمسكين الطعام ، يتصور منهم حبهم المال هذا الحب الشديد .

أضف إلى ذلك ما توحى به كلمة (التراث) من أنه مال مات حاميه ، وصار حماته صبية ونساء ، وهم حماة عاجزون عن الذب عنه ، تأمل كيف يوحى الأسلوب بانتزاع كل رحمة من قلوبهم ، وقهرهم العجزة والضعفاء ، كيف تتصور من قوم هذه شيمتهم أن يطعموا مسكينا أو يتيما ، وهم يتحينون الانقضاض على أموالهم ، هل تتصور أن يعطوا أياً من هؤلاء شيئا من أموالهم، أو يحضوا على فعل هذا ؟! هذه بلاغة القرآن التى تكشف عن خبيئة العصاة ، وعن دواخل نفوسهم ، ثم تأمل التعبير بالمفعول المطلق (أكلا) ، وما يوحى به من أنه أكل كالأكل الحقيقى ، إذ بعد أن يلتهم مال الضعفاء يجتهد فى إخفائه اجتهاد من يخفى رائحة طعام التهمه دون أن يكون له أدنى حق فيه.

وتدل كلمة (لما) على قباحة فعلتهم ، فهم لم يميزوا بين طيب وخبيث ولا بين حق ولا غير حق ، لذا قال الليث : اللم : الجمع الشديد ، وقال الحسن يأكل نصيبه ونصيب غيره [1]، وكأن هذه الآية الكريمة تلخيص دقيق لحديث القرآن عن أكل الميراث بغير حقه ، وهذه الآية بمثابة التأكيد على القبائح السابقة ، والآية التى تليها كالعلة والسبب لها ، وفى الوقت نفسه كالتعليل لحديث القرآن هنا عن اليتيم والمسكين والتراث . لأن حب المال هو الذى يوقع فى كل هذه الموبقات ، ولم يوصف حب المال بهذا الوصف (حبا جما) إلا فى هذا الموضع من الذكر الحكيم ؛ كشفا عن أنه حب يعمى ويصم ، وقد ذكروا

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠/٧٣٨٨ ، مجمع البيان للطبرسى ١٠/ ٧٤٠ .

أن الجم هنا الشديد ، وإنما قالوا هذا لأن الحب من المعانى النفسية وهى لا توصف بالكثرة ؛ لذا قال ابن عاشور : «الجم مستعار لمعنى القوى الشديد ، أى حبا مفرطا ، وذلك محل ذم حب المال ، لأن إفراط حبه يوقع فى الحرص على اكتسابه بالوسائل غير الحق كالغصب والاختلاس . . .[١]»

وقد نبه البقاعى على ترتيب بديع لهذه الآية مع ما قبلها ، فقد ذكر أن الآيات السابقة دلت على حب الدنيا بأمر خارجى ، وهذه الآية (وتأكلون. . .) دلت عليه بأمر فى الإنسان ثم قال : «ولما كان ذلك قد يفعل عن ضرورة مع الكراهة ، قال ما هو صريح فى المقصود (وتحبون . . .) أى على سبيل الاستمرار[٢]» فقد كشف هذا الترتيب عن استمرار العادات الماضية فيهم لما أعماهم حب الدنيا .

وقد وردت ألفاظ مختصة بالسورة فى حديثها عن اليتيم والسكين وأكل المال (تكرمون - التراث - لما - جما) مما يهديك إلى اكتشاف خصائص السورة فى حديثها عن هذه الأمور ، مقارنة بحديث القرآن عنها فى المواطن الأخر ، وقد وقفناك على شئ من ذلك ، وحديث القرآن عن حب المال بهذا الوصف هنا، دال على أنهم يضيعون كل حقوق الله فى سبيل هذه الغاية ، فتدخل كل الموبقات ، والمعاصى تحت هذا المعنى ، وهذه الحلقة من الآيات ، تمثل فى مسيرة المعنى الكشف عن أسباب الحساب بهذا الأسلوب الموجز المعجز ، الذى يتناسب مع ما سبق من الآيات فى حديث القرآن عن الفسدة الطاغين فى الأمم الماضية وكان المال هو مرتكز حديث القرآن فى هذه الحلقة ؛ لأن المال يطغى ، ويدفع الى الفساد ، وآية ذلك تقديم القرآن المال على البنين فى حديثه

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٣٤ .

(٢) نظم الدرر ٨/ ٤٢٠ .

عن التفاخر بالدنيا من مثل قوله تعالى : **﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا .. ﴾** الكهف / ٤٦ وقوله : **﴿عتل بعد ذلك زنيم أن كان ذا مال وبنين ...﴾** (القلم ١٤ ، ١٥) وقوله : **﴿وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً .... ﴾** (سبأ / ٣٥) (أنا أكثر منك ما لا أعز نفرا . . .) (الكهف/ ٣٤) إذالمال هو الذى يجمع إلى الإنسان القوة ، ويعينه على الفساد ، وهو سبب تقطيع الأواصر ، وسحق الضعفاء ، وكل فساد فى المجتمعات .

هذه الحلقة إذن تلخيص لأسباب الحساب ، وتبيان لأسباب العذاب.

من تدمير الكون إلى نهاية الحساب وظهور المعنى كفلق الصبح

نأتى هذه الحلقة ؛ كشفا عن ميقات الحساب ووقوع ذلك العذاب ، هذا وقد صدرت الآيات بـ (كلا) وهى معلم ظاهر على تواصلها مع ما قبلها ، وقد كشف البقاعى عن تناسب هذه الآيات مع ما قبلها فقال : «ولما كان السياق هاديا إلى أن التقدير : يحسبون أن ذلك يوفر أموالهم ، وبحسن أحوالهم ، ويصلح بالهم ، زجر عنه بمجامع الزجر فقال : (كلا إذا دكت الأرض ....) ... ثم استأنف ذكر ما يوجب ندمهم ، وينبههم من رقدتهم، ويعرفهم أن حب المال لا يقتضى نموه »[1] فكل تفكيرهم منكور ، وكل اعتقاداتهم فى الأموال مردودة ؛ لذا جاءت (كلا) وفيها مجامع الزجر كما قال البقاعى إلماعا إلى شدة إنكار ذلك عليهم .

وهذه الحلقة الأخيرة من مسيرة المعنى فى السورة الكريمة توضع من مسيرة المعنى فى ذروة سنامه ، إذ كل ما مضى من الآيات كان مهاداً ، بسوق الحجة العقلية حينا ، وسوق الحجة الواقعية حينا ، والتفنن فى إثبات المعنى ، إلى أن تفجر المعنى فى هذه الحلقة الأخيرة من السورة تفجرا ظهر به المعنى كفلق الصبح ، فقد أثبت الإياب بمنطق العقل فى القسم ، ثم أثبت الحساب فى الدنيا ، ويقاس الغائب على الشاهد من آثار الأمم البائدة التى عتت عن أمر ربها ورسله ، ثم كانت الحلقة الثالثة كشفا عن سبب عماية الطغاة ، وعلة بغيهم وطغيانهم وهو المال فى مجمله ، ثم كانت الحلقة الرابعة والأخيرة فى مسيرة المعنى ، وهى حلقة الحديث عن الحساب العام ، ويوم الجمع يوم الحساب .

والآية التى تتحدث هنا عن تدمير مظاهر الحياة آية جامعة ، إذ هى تكتنز

---
(١) نظم الدرر ٨/ ٤٢٠ .

كل ما جاء فى القرآن الكريم ، وكأن القرآن العظيم يطوى الحديث طيا فى شأن الواقعة ؛ لأن العناية متوجهة نحو بيان الحساب وهوله (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا) وقد جاء الفعل مبنيا للمجهول (دكت) ، وترى بنت الشاطئ أن مجيئة كذلك ينسق مع الظاهرة الأسلوبية ، التى يطرد فيها صرف النظر عن الفاعل فى أحداث الساعة [1]، والأعلى ما أبصره البقاعى من أنه جاء كذلك إلماعا إلى سهولة ذلك الأمر [2]مع عظمته وهو له وقد جاء الحديث عن تدمير الأرض فى مواطن متعددة من الذكر الحكيم ، الإخبار برجها [3]أو زلزلتها[4]،أو رجفها [5]،أو دكها [6]، غير أن سورة الفجر قد اختصت، بهذا البناء وبهذا السياق ، فقد وقعت دكا الأولى مفعولا مطلقا ، وهو يفيد توكيد الدك ، وقد اتفقت كلمة العلماء هنا على أن (دكا) الثانية ليست توكيدا لفظيا لـ (دكا) الأولى ، وإنما هى عندهم على حد قولنا : قرأت الكتاب بابا بابا ، فكأن لكل موضع من الأرض من جبل وأكمة ، وثنية وعقبة دكا يخصه، فالتكرار هنا للاستيعاب [7]وهو الأوفى بحق البلاغة وهذا ما يميز تركيب صورة الفجر عن تركيب صورة الحاقة (وحملت الأرض والجبال فدكتا

---

(١) التفسير البيانى / ١٥٤ .

(٢) نظم الدرر ٨/ ٤٢٠ .

(٣) الواقعة/ ٤ .

(٤) الزلزلة / ١ .

(٥) المزمل / ١٤ .

(٦) الحاقة / ١٤ .

(٧) الكشاف ٤/ ٢٥٣ ، نظم الدرر ٨/ ٤٢١ ، أنوار التنزيل ٢/ ٥٥٨ ، الفتوحات الإلهية ٤/ ٥٣٤ فتح القدير ٥/ ٤٤٠ ، ٤٤١ ، حاشية الصاوى ٤/ ٣١٦ ، روح المعانى ١٥/ ١٢٧ ، جزء عم / ٦٠٥ التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٣٧ ، التفسير البيانى / ١٥٤، مجمع البيان ١٠/ ٧٤٠ .

دكة واحدة) فالدّك فى سورة الفجر دك مبالغ فيه ، فهو دك شامل ومتتابع يدمر كل شئ ، وقد أوثر دك الأرض بالحديث هنا لشموله مظاهر تدمير الكون التى تحدث عند قيام الساعة وهو منثور فى الذكر الحكيم فى مواطن متعددة منه، تصف هيئة تدمير الجبال ونسفها وصيرورتها عهنا وعهنا منقوشا ، وكثيبا مهيلا ، وهباء منبثا ، وسرابا وغيرذلك ، وهذا ما عنيته بقولى : إن الآية تلخيص للحادثات الواقعة عند قيام الساعة ، وشئ آخر وراء اصطفاء السورة دك الأرض خاصة ، هو أن «الأرض هى مكان ما يحشده المتكالبون على الدنيا من زخرف ومتاع ، وما يشيدونه عليها من المبانى ذات العماد والأوتاد[1] فلا حاجة فى السياق لذكر أهوال السماء .

وقد طوى السياق قصة البعث ، وتبديل الأرض غير الأرض والسموات، وهى حلقات مكتنزة بين آية دك الأرض ، وآية مجئ الله - عز وعلا - لأن السياق تتوجه عنايته إلى الحساب ، إذ هو المقصود فى السورة ، وترى حركة المعنى فى غاية سرعتها ؛ لأن مقصد السورة يبرز هنا كفلق الصبح من بعد هذا المهاد الطويل الذى حدثتك عنه .

(وجاء ربك والملك صفا صفا) ما من ريب أنك تحس الهول الرهيب وراء هذا التعبير الذى لا نظير له فى الذكر الحكيم ، نعم هنا تراكيب يقارب معناها هذا المعنى ، لكنه يأتى على سبيل الاستفهام فى مخاطبة المشركين ﴿**هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك ...**﴾ (الأنعام / ١٥٨) ﴿ **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك ...** ﴾ (النحل / ٣٣) .

فهذا إنشاء والذى معنا إخبار ، فليس المقام هنا للحوار والجدل ، وإنما

(١) التفسير البيانى / ١٥٤ .

المقام للتهديد والتخويف ، وبعد أن أمتع السياق العقل بالإقناع والحجة والإحالة على الواقع ، وتختص سورة الفجر بالقرن بين مجئ الله والملائكة فى يوم الحساب وللقرآن الكريم حديث فى موضع آخر على مجئ الملائكة صفا ، لكنه على غير هذا الوجه ، تأمل : ﴿ **يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا** ﴾ (النبأ / ٣٨) .

لن نقف بك كثيرا عند المسألة العقدية فى هذه الآية ، وحسبك أن تعلم أن مذهب السلف ، وهو الإيمان بالمجئ فى إطار قوله تعالى : ﴿**ليس كمثله شئ**﴾ فهو إيمان بالمجئ بلا كيف وهو الذى تطمئن إليه النفس ، والخلف يتأولون ، فالآية إما أن تكون على سبيل الاستعارة التمثيلية بأن مثل حاله - تعالى - فى ظهور آيات قدرته ، وآثار قهره وسلطانه بحال السلطان إذا حضر بنفسه ، فإنه حينئذ يظهر من آثار هيبته وسياسته ما لم يظهر بحضور وزرائه وسائر خواصه ، فاستعمل فى الحال الأولى ، ما استعمل فى الثانية .

وإما أن يكون فى الكلام حذف والتقدير : وجاء أمر ربك [١]، غير أن هذه التأويلات تطفئ الإحساس بهذا الهول المفزع ، فوق أنه دخول فى علم الغيب ، وإكراه للعقل المخلوق الضعيف ، أن يفكر فيما لا تطيقه قدرته على الإطلاق ، فالأولى حمل الآية على الحقيقة ، وهو الأبر بالسياق ، والألصق بمجرى المعنى - إذ بعد الآية الكريمة ، ﴿**وجئ يومئذ بجهنم**﴾ والذين تأولوا فى الآية السابقة تأولوا هذه الآية ، والذين أجروا الأولى على الحقيقة ، أجروا

---

(١) بحر العلوم ٣/ ٤٧٧ ، الكشاف ٤/ ٢٥٣ المحرر الوجيز ١٦/ ٢٩٩ أنوار التنزيل ٢/ ٥٥٨ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٧٣٩٢ ، نظم الدرر ٨/ ٤٢١ ، مسائل الرازى وأجوبتها / ٥٣١ ، حاشية محيى الدين شيخ زاده ٤/ ٦٥٨ روح المعانى ١٥/ ١٢٨ عم/ ٦٥ ، التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، فى ظلال القرآن ٦/ ٣٩٠٦ ، التفسير البيانى / ١٥٦ .

هذه على الحقيقة ، وأنت تبصر أن السياق هنا للترهيب ، والتسليم بالحقيقة أعلى من التأويل ، والسياق للذين طغوا فى البلاد ، وأكثروا فيها الفساد ، ومن نهج نهجهم ، فالمناسب لمثل هؤلاء ، هو هذا التهديد الرهيب ، والتخويف المفزع .

وتتفرد سورة الفجر فى حديثها عن اصطفاف الملائكة بقرن ذلك الاصطفاف بمجئ الجبار - جل وعز - كما تتفرد بوصفهم بـ (صفا صفا) وقد ذكر ابن عاشور أن «صفا الأول حال من الملك ، وصفا الثانى لم يختلف المفسرون فى أنه من التكرير المراد به الترتيب والتصنيف . . . وشذ من المفسرين من سكت عنه ، ولا يحتمل حمله على أنه مفعول مطلق مؤكد لعامله ، إذ لا معنى للتأكيد [1]وقد أجرى البقاعى كل الآية على التمثيل [2]،قد سبق رد هذا الرأى . وما ذهب إليه ابن عاشور ؛ اتباعا لجمع المفسرين [3]وهو الأعلى ، لأن الملائكة لهم مراتب ومنازل ، كما دل على ذلك صريح القرآن العظيم فى كثير من المواطن ، وكما شرحته السنة المطهرة فى كثير من الأحاديث ، ولا يفوتك أن اللام فى قوله (والملك) لام الجنس ، وهى تفيد الاستغراق هنا .

وشئ آخر هو أن هذا التصاف والانتظام مع ما فيه الناس من الفزع فى هذا اليوم مما يوحى بشدة التخويف ، وبعلو التهديد ، وفيه تمام إحاطة ، مما يوحى بشدة الأخذ .

ألا ترى أن هذه الإيحاءات هى التى تتناغى مع قوله تعالى بعد ﴿وجئ

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٣٧ .

(٢) نظم الدرر ٨/ ٤٢١ .

(٣) أنوار التنزيل ٤/ ٦٥٨ ، بهامش زاده ، الصاوى على الجلالين ٤/ ٣١٧ روح المعانى ١٥/ ١٢٨ .

يومئذ منهم ...﴾ إنه موقف رهيب الرب ـ سبحانه ـ وجنوده ـ وعذابه كل ذلك حاضر ومحيط بالطاغين المفسدين الباغين العادين ، ولست مع من ذكر أن المجئ هنا على سبيل التجوز [1]؛ احتجاجا بأن النار لم تتحرك من مكانها ، وهذا فى اعتقادى كمن يظن أن الأرض لا تتحرك ، وهو دس للأنف فى غيهب الغيب المكنون عنا ، وقياس لأحوال الآخرة على أحوال الدنيا ، وهذا مردود ، لأنه ادعاء العجز على الله أن يعطى مخلوقاته قدرات لا تقوى عقولنا على تصورها الآن ، وقضية إنكار المجاز شئ ، وإنكار إجراء مثل هذه الآيات على المجاز شئ آخر . ألا تبصر أن الله يجرى على يد أنبيائه ، ويمنح أولياءه ما يخرق العادة ، وما يطيس أمامه العقل ، وما يطير منه الفؤاد ؛ إلماعا إلى طلاقة قدرته ؛ وبيانا أنها لا تحد بحد ولا يقادر قدرها . ولأجل تظاهر الأدلة على إجرائها على الحقيقة اختار هذا الرأى قوم [2].

وما قصة الذى عنده علم من الكتاب عنك ببعيد ، وما معجزات عيسى ولا موسى ولا سليمان عليهم السلام بغائبة عنك .

ثم إن مجئ الفعل (جئ) بالبناء للمجهول قطع دابر الشبهة ، وبناء الفعل للمجهول هنا يوحى بعظمة الفاعل ، وتذهب النفس فى تقديره كل مذهب ، الله الذى جاء بها ؟ أم ملائكته ؟ وأى عدد من ملائكته ، غير أن هول الموقف يعمى الذهن عن التفكر فى الفاعل من هو ، بل هو فى شغل شاغل بمجئ عذابه إليه ، وحضوره لديه ، إن دخوله جهنم حينئذ أهون عليه من إبصارها ، هذا ما يشعه نور التركيب ، فبناء الفعل للمجهول أوحى بهول

(١) أنوار التنزيل بهامش زاده ٦٥٨/٤ ، حاشية محيى الدين شيخ زاده ٦٥٨/٤، التفسير البيانى / ٥٧ .

(٢) روح المعانى ١٢٨/١٥ ، فى ظلال القرآن ٣٩٠٦/٦ ، التحرير والتنوير ٣٣٨/٣٠ .

الموقف ، وشدة الأخذ .

هذا ، وبالرغم من انتشار الحديث عن جهنم فى مواطن متعددة من الذكر[1] الحكيم إلا أنك لا ترى هذا التركيب فى أى من هذه المواطن ، فكأن التركيب من خصائص سورة الفجر ، وهو الملائم لأحوال عاد وثمود وفرعون، والناهجين نهجهم .

وقد ذكر ابن عاشور أنه «إنما اقتصر على ذكر جهنم ، لأن المقصود فى هذه السورة وعيد الذين لم يتذكروا ، وإلا فإن الجنة أيضا محضرة يومئذ : قال تعالى : ﴿**وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد** ...[2]﴾ وهو من لطائف البصر فيما حوته السورة ، ومن المراقبة النافذة للسياق .

وتلحظ هنا أن (يوم) أضيف إلى (إذ) وجاءت بتنوين العوض عن جملة، ووقوعها كذلك من المعالم الدالة على معاقد الكلام ، إذ التقدير وجئ يوم إذ تدك الأرض .... وفيه عقد للكلام اللاحق بالسابق ، والمقدر كالمحذوف ، فهو تكرار بالتقدير وإن لم يكن تكراراً بالذكر ، مما يهول من أمر هذا اليوم ، لذلك قالوا فى (يومئذ بجهنم) بدل من إذا دكت [3]، وقال فى (يومئذ يتذكر ...) بدل من الأول وقد ذكروا أن العامل فيه يتذكر [4]، وكل هذا من اكتنازات التعبير القرآنى ، فالتنوين فى (إذ) يلفتك إلى ما مضى ، ويكرر عليك هول الدك ، وهول المجئ ، وهول جهنم وحضورها ، ليقرع

---

(١) ورد ذكرهم صراحة فى أكثر من سبعين موضعا ، وإذا ضممت إلى ذلك النار والسعير وسقر وغير ذلك كنت أمام حشد من الآيات .

(٢) التحرير والتنوير ٣٣٨/٣٠ .

(٣) روح المعانى ٣٠ / ١٢٨ .

(٤) مشكل إعراب القرآن لمكى القيسى ٨١٨/٢ .

ذلك عقل الإنسان الغافل ، ويحضر الهول أمام مخيلته ؛ لذا قال الإمام محمد عبده ـ رحمه الله ـ «وتكرر ذكر اليوم فى قوله أولا (إذا دكت . . .) وقوله : (وجئ يومئذ . . .) (فيومئذ . . .) ليقوى عندك استحضار دك الأرض ، وظهور الجلال الإلهى ، ثم إن التنوين فى يومئذ الأولى نائب عن دكت الأرض ، وجئ ربك والملك ، وفى (يومئذ يتذكر) نائب عن ذلك وعن مجئ جهنم ، وفى يومئذ الثالثة (فيومئذ . . .) ينوب التنوين عما تقدم ، وعما تضمنه قوله : (يقول يا ليتنى قدمت . . .) ولا يخفى ما فى ذلك من تقوية الذكرى لمن له قلب يذكر ، وجدان يشعر [(١)]» .

ومجئ (يتذكر) بالمضارع يتلاءم مع هذا السياق ، ففى موقف كهذا لابد أن يتكرر التذكر ، وجاء المسند إليه معرفا بلام الجنس ، إيحاء بعموم البلوى وشدتها ، وهو مع ذلك إنسان يخصصه سياق سورة الفجر بما ذكره من الأوصاف (فأما الإنسان . . .) .

وجاء بلفظ الإنسان ؛ إيماء إلى كثرة نسيانه ، وتكرر غفلته ، فيصعب تذكره التقدم والتحسر (يقول يا ليتنى قدمت لحياتى) غير أنه أوقع جملة اعتراضية بين جملتين إما أن يكون بينهما كمال اتصال ، إذ وقعت الثانية من الأولى موقع بدل الاشتمال ، من يتذكر ، وإما أن تكون الثانية استئنافا وقع جوابا عن سؤال نشأ : ماذا يقول عند تذكره ؟ فقيل : يقول يا ليتنى . . .[(٢)]، وهذا الاعتراض يعلى من تحسير الإنسان وتنديمه ، إذ التذكر ليس بنافعه ، لذا قالوا : أثبت له التذكر ، ثم نفاه بمعنى أنه لا يتنفع به فكأنه لم يكن ، وكان ينبغى له أن يتذكر فى وقت ينفعه ذلك [(٣)]، وقيل هناك مضاف محذوف أى

(١) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده / ٦٥ ، ٦٦ .
(٢) الفتوحات الإلهية ٤/٥٣٥ ، إرشاد العقل السليم ٩/١٥٨ ، فتح القدير ٥/٤٤١ .
(٣) مجمع البيان للطبرسى ١٠/٧٤١ .

وأنى له منفعه الذكرى ، قالوا : ولا بد من تقديره لئلا يكون تناقض [(١)].

والاستفهام هنا استفهام إنكارى [(٢)]؛ لذا يبعد ما قالوا من حتمية التقدير دفعا للتناقض ، وشئ آخر هو أن عدم التقدير يفيد تأكيد انتفاء منفعة الذكرى، إذ التركيب معناه إنكار عليه أن يفعل ما لا فائدة فيه ، لذا جاء بما يدل على البعد، وهو الاستفهام الإنكارى فالتذكر غير المفيد كأنه لم يكن ، وهذا أبلغ فى التقديم ، وقد ذكر أبو السعود أن هذا الاعتراض جئ به لتحقيق أنه ليس يتذكر حقيقة لعرائه عن الجدوى بعدم وقوعه فى أوانه [(٣)]. والأول أولى ، والثانى وجيه ، لأن نفى تذكره يدل على عظم الموقف ، وعلى إصابته بالدهش من هول ما وقع ؛ لذا لا يتذكر .

وإذا كان التذكر لا يكون حقيقة ، فعلام يكون الندم ﴿ **يقول يا ليتنى قدمت لحياتى** ﴾ وقد وقع فى سياقات كثيرة فى الذكر الحكيم أن الإنسان يرى عمله ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾ (الزلزلة / ٧ ، ٨) ﴿ **وقالوا يا ويلتنا مال لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ...** ﴾ (الكهف / ٤٩) إلى آخر ما ورد فى الذكر الحكيم ، وما من ريب أنه عند الذكر يكون التذكر والاتعاظ ، فمناط التقديم هو التذكر حين فوات الأوان .

وقد ورد الحديث عن تذكر الإنسان فى سورة النازعات ﴿ **يوم يتذكر الإنسان ما سعى وبرزت الجحيم لمن يرى** ﴾ (النازعات / ٣٥، ٣٦) غير أن سورة الفجر تختص بخذف المفعول ، وبهذه الجملة الاعتراضية ، والكناية عن

---

(١) روح المعانى ٢٩/٣٠ .

(٢) حاشية الصاوى ٣١٧/٤ .

(٣) إرشاد العقل السليم ١٥٨/٩ .

الندم فى هذا الوقت وردت فى كثير من آى الذكر الحكيم إلا أن سورة الفجر تختص بهذا الفعل (قدمت) وهذا المتعلق (لحياتى) ، مما يجعل هذا التركيب تلخيصا موجزا لكنايات القرآن عن ندم الإنسان عند الحساب ، فالتقديم يشمل ﴿ يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ...﴾ (الانعام / ٢٧) ﴿يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا﴾ (الفرقان / ٢٧ ، ٢٨) وغير ذلك [١] مما يقاربه فى الذكر الحكيم ، إذ كله معناه العام ليتنى أرجع إلى الدنيا فأعمل للآخرة . وهذا المتعلق يوحى بتمام التندم وغاية التحسر ، إذ فيه أنه لم تكن له حياة قبل ذلك من هول ما رأى ، وقد حذف مفعول قدمت إيجازا فى اللفظ وإطنابا فى المعنى ، وقد جاء أسلوب الإنشاء بليت التى تفيد تمنى المستحيل ، وهى مسبوقة بيا التى تفيد التنبيه والتحسر ، مما يوحى بأن متمناهم لن يتحقق ، وذلك مما يعلى حسرتهم .

فهذا التركيب ألصق بسياق سورة الفجر بكثرة الحذف الذى فيها ، وإيجاز الهول المذكور فى سياقها . وهذا ما ذكرته من اكتساء التراكيب المشتركة خصائص تربطها بالسياق .

(فيومئذ لا يعذب ...) الفاء هذه من معاقد الكلام ، إذ وقعت كذلك، لأن (إذا) تتضمن معنى الشرط ، وقوله (يومئذ) يلفتنا إلى كل ما ذكر من الأحوال والأهوال ، وفى الحذف من الإيجاز واكتناز التعبير ما فيه ، وفى الحذف استحضار للأهوال ، وإعادة لذكرها بالتقدير حتى يقرع ذلك مسامع الغافلين ، ويزعج القلوب من غفلتها والأفئدة من سكرها : إنك ترى الأسلوب هنا يتكئ على الحذف ، وهو من أعلى وسائل البيان فى هذا السياق، وفى الأسلوب الإيجازان إيجاز القصر ، وذلك ما تبصره حين طوى

(١) سورة الأحزاب / ٦٦ ، الزخرف / ٣٨ ، الحاقة / ٢٥ : ٢٧ ، النبأ / ٤٠ .

السياق الأحداث طيا عجيبا ، ولخص الأحداث والأهوال تلخيصا بديعا ، وإيجاز الحذف الذى تراه فى تكرار (إذ) المنونة والتى يعوض بتنوينها عن الجملة والجمل، ذلك أن المعنى هنا يتحدر تحدرا غاضبا، وتتلاطم أمواجه ، من بعد ما أطال المهاد والفرش من مطلع السورة إلى قوله ﴿**كلا إذا دكت الأرض ...**﴾ .

وقد ذكر العلامة ابن عاشور ـ كما هداه الأسلوب ـ أن المقصود من هذا الكلام ـ كلا إذا دكت الأرض . . . ـ هو قوله : ﴿**فيومئذ لا يعذب عذابه أحد...**﴾ وقوله : ﴿**يأيتها النفس ...**﴾ وأما ما سبق من قوله : ﴿**إذا دكت...**﴾ إلى قوله : ﴿**وجئ يومئذ بجهنم ...**﴾ فهو توطئة وتشويق لسماع ما يجئ بعده ، وتهويل لشأن ذلك اليوم ، وهو الوقت الذى عرف بإضافة جملة (دكت) وما بعدها من الجمل ، وقد عرف بأشراط حلوله ، وبما يقع فيه من هول العقاب [(١)].

وهذا ما يبيح به تركيب الجملة ، فالكلام معقود عقدا بديعا ، وهكذا تبصر كيف تناغى الكلام فى السورة الكريمة ، وكيف تواصل حتى صار كالجملة المفردة ، وكما أبصرت فى مطلع السورة أحوال الأمم ، وأن الله لا يعذب عذابه أحد ، كذلك فى الآخرة لا يعذب عذابه أحد ، فيتعانق بذلك فى السورة الكريمة المعنى وما يؤكده ، ويقاس المعنى الغائب على المعنى الحاضر وهو من تواثبات المعنى فى آخر السورة إلى ما جاء فى أولها ، وهو تعانق بديع فى التراكيب لا تراه فى كلام البشر ، فسبحان من أنزله ولله نوره .

وقد جاء الكشف عن عذاب الله فى هذا الوقت بالإيجاز الذى يوحى بهول عذابه ـ سبحانه ـ وتعظيمه ، فقد أسند التعذيب والإيثاق إلى الله تعالى،

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٣٥ .

مما يبلغ الترويع به منتهاه فى موقف الحساب والجزاء والعقاب [1]، وقد ذكروا أن الهاء فى (عذابه ووثاقه) إما أن تكون لله - عز وجل - فيكون المعنى لا يتولى عذاب الله تعالى ووثاقه - سبحانه - أحد سواه [2]، وهو مما يكاد ينخلع منه القلب ، حين يعلم الإنسان أن جرمه اقتضى أن يتولى الجبار تعذيبه بنفسه، ويمكن أن يكون الضمير فى (عذابه ووثاقه) من إضافة المصدر إلى مفعوله ، لا إلى فاعله كما مضى - وحينئذ يكون الضمير عائدا للإنسان ، ويكون (عذاب - ووثاق) مفعولين مطلقين مبينين للنوع على معنى التشبيه البليغ [3]، أى لا يعذب مثل عذابه أحد ، ولا يوثق مثل وثاقه أحد ، وفيه أيضا نبرة ترهيب عالية، لأن المعنى أنه يعذب عذابا لا يعذبه أحد من العصاة ، مما يوحى بهوله وشدته ، ويؤيد هذا المعنى قراءة (يعذب ويوثق) بالبناء للمفعول [4]، وهذا التركيب هو الذى يناسب مقام التغليظ ؛ لذا لا تجد له نظيرا فى الذكر الحكيم، لأنه الملائم للإنسان الوارد فى هذا السياق ، وقد وقع الفاعل ، أو نائب الفاعل (أحد) بهذا اللفظ الدقيق الذى لا يقتضى العدد أما لفظ (واحد) فهو يقتضى العدد ، فتقول واحد ، اثنان . . . الخ

وقد وقع - مع دلالته هذه - نكرة فى سياق نفى مما دل على الاستغراق ، فإن كان فاعلا ، فإنه لن يعذب أحد عذابه ألبتة ، وإن كان نائب فاعل ، فلن يعذب أحد على الإطلاق كما يعذب هذا الإنسان ، فأفاد هذا التركيب تفرد المعذب أو تفرد المعذب على القراءتين .

وكما لا تجد نظيرا لهذا التركيب فى الذكر الحكيم ، لا تجد نظير

(١) التفسير البيانى / ١٥٩ بتصرف .

(٢) روح المعانى ٢٩/٣٠ .

(٣) التحرير والتنوير ٣٤٩/٣٠ .

(٤) إتحاف فضلاء البشر ٦٠٩/٢ .

للتركيب المعطوف عليه أيضا (ولا يوثق وثاقة أحد) وقد جاء التعبير بالإيثاق ولم يجئ بالتقييد ، لأن الوثاق هو أبلغ القيد وأقواه ، وهذا أيضا عذاب إلى العذاب ، كأنه على معنى قول ربنا ﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون** ﴾ (النحل / ٨٨) وفرق بين أن تعذب طليقا ، وأن تعذب مقيدا ، وقيد الله لا منتهى له ، ولا حد يحده ، فإن وثاقه ـ جل وعز ـ قوى محيط .

وكل ذلك مما يلائم أحوال الطاغين ، وجرائم الباغين ، ومعاصى الإنسان المذكور فى السياق ، والكلام على هذا التركيب كالكلام على التركيب السابق .

المعنى يحط رحاله

أنت فى نهاية هذا السياق لا يكاد يقر لقلبك قرار ، ولا تكاد تهدأ لك نفس ولا يكاد يطمئن منك الفؤاد ، فتسمع بعد ذلك قول ربك ﴿**يأيتها النفس المطمئنة ..**﴾ فتجتمع نفسك ، ويثلج صدرك ، ويطمئن فؤادك ، وقد جاء الأسلوب الإنشائى هنا بطريق النداء ، مما يوحى بحال هذه النفس ، وقد باعد الخوف بينها وبين الأمن ، يقول الإمام محمد عبده : «ومفاجأة السامع بهذا النداء ضرب من ضروب إيجاز القرآن التى لا تخطر لبشر على بال ؛ فإن التقى الخائف الذى يخاف مقام ربه إذا سمع ذلك الوعيد المتقدم ، أخذت الرهبة نفسه ، وأنعمت الخشية قلبه ، فبينا هو كذلك إذ ينقذه هذا النداء ، ويصعد به إلى أكرم مناد [١].

وفى أسلوب النداء إيحاء بالقرب ، وإشعار بالعطف ، وقد ناداها بوصف لا نظير له فى الذكر الحكيم ، ثناء عليها وتطمينا لها ، ووصفها بالمطمئنة إلماع إلى أن الله يبعد عن هذه النفس هو اجس القلق والشك والحيرة والخوف لأن (اطمأن) فى العربية من أفعال القلوب ، فهذا الوصف لا يكون إلا من القلب وفيه [٢].

وقد جاء التناسب بين الآيات وسابقتها بطريق التباين ، فهذا يقول : يا ليتنى قدمت لحياتى ، وهذه يقول الله تعالى ـ لها ﴿**يأيتها النفس ...**[٣]﴾ وربما تلمح أيضا تناسبا بين ذكر النفس بهذا الوصف (المطمئنة) وبين ما أقسم الله به

---

(١) تفسير جزء عم / ٦٦ .

(٢) فى ظلال القرآن ٦/ ٣٩١٧ ، التفسير البيانى / ١٦١ بتصرف .

(٣) روح المعانى ٣٠/ ١٣٠ والفتوحات الإلهية ٤/ ٥٣٥ ، وزاده على البيضاوى ٤/ ٦٥٩ بتصرف.

فى أول السورة (والفجر) فهو وقت سكينة النفوس واطمئنانها الذى يعقبه الانتشار للمعاش ؛ لذا لا ترى النفس موصوفة بهذا الوصف فى غير هذا الموضع فى الذكر الحكيم .

وفى هذا الوصف أيضا إيماء إلى وجه بناء الخبر ، فهى أعلى مراتب النفس لذا سيكون لها أفضل الجزاء ، ﴿ **ارجعى إلى ربك** ﴾ ذكر القفال أن الفعل ، وإن كان أمرا فى الظاهر ، فهو خبر فى المعنى [1]، ويكون استعمال الإنشاء فى الخبر دليلا على عظيم اهتمامه - سبحانه - بهم ، لما يشعر به أسلوب الأمر من استنهاض همتهم مما يبعد الخوف عنهم ، لإشعاره بالقرب ، كما تقول لمن كان خائفا منك وقد اقترب منك اقترب . نريد إيناسه ، وإذهاب وحشته ، وهذا القول هو الملائم لوصف النفس فى هذا السياق ، ولتناغيه مع أسلوب النداء الذى يوحى بالقرب والعطف والحنو أيضا .

هذا وقد كثرت الأقوال فى معنى الرجوع إلى الرب ، هل هو على الحقيقة ، أم أن الأمر على التأول ، والدافع من وراء ذلك كلامى لا لغوى ، والذى أبصره أنه رجوع نؤمن به ولا ندرك حقيقته ، والذين أولوا أيضا يقصدون تنزيه ذات الله - سبحانه - أيضا ، وذلك لما تشعر به (إلى) من الانتهاء والذين تأولوا لهم طريقان ، إما إجراء ذلك على التمثيل ، أو على الحذف إلى لقاء ربك ، أو غير هذا ، ومنهم من ذكر أن ربك هنا بمعنى صاحبك ، ويكون المراد ارجعى إلى جسدك قاله ابن عباس وعطاء وجماعة واختاره ابن جرير[2] ويؤيده إضافة (رب) إلى ضمير الخطاب الذى يعود إلى

---

(١) الفتوحات الإلهية ٤/ ٥٣٥ .

(٢) الجامع الأحكام القرآن ١٠/٧٣٩٦ روح المعانى ٣٠/١٣١ ، ١٣٢ الفتوحات الإلهية ٤/٥٣٥ .

النفس وما جاء بعده من الإضافة إلى ضمير يعود على الذات العلية (فى عبادى) (فى جنتى) .

وفى إجراء الكلام على حقيقته تناغ مع مقام الإشعار بالقرب ، ويكون المراد بهذا الوصف (رب) الله ـ سبحانه ـ ويكون إظهارا فى مقام الإضمار بيانا عن ولاء هذه النفس ، وكشفا عن اختصاصها ، وتكون الإضافة إلى ضمير الخطاب تشريفا كما ذكر بن عاشور [١]، وهو ما يطمئن القلب إليه .

ومما يعلى من هذا ، وقوع حالين متتابعين من الفاعل فى (ارجعى) وهما راضية مرضية ، وفى الحال الأولى كناية عن إعطاء هذه النفس كل ما تطمح إليه ، وفى الثانية ثناء عليها علاوة على الثناء الأول بوصفها بالمطمئنة ، وكناية عن الإفاضة فى الإنعام عليها كما ذكر ابن عاشور[٢] .

والملحوظ أن (راضية) اسم فاعل يعمل عمل الفعل ، والرضا من مواد القلوب وهو متناغ مع الاطمئنان ، مما يعلى من شأن العطاء ويضاعف منه . وقد حذف متعلق ـ راضية ـ ليشمل ما جاء فى الذكر الحكيم من إرضاء النفس عن عملها ، ورضائها عن عطاء ربها ، وذلك من التناسب بين سورتى الفجر والغاشية **﴿وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية﴾** (الغاشية /٨،٩) وقد وقع التعبير عن رضا النفس ، عطاء الله ، ورضا الله عنها فى مواطن أخرى من الذكر الحكيم **﴿رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾** (المائدة / ١١٩) **﴿رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ...﴾** (المجادلة / ٢٢) **﴿رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه﴾** (البنية/٨) وتلحظ أن رضا الله عنها مقدم فى كل المواقع ، عن رضاها عن الله ، وكل ذلك ما يضاعف

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٤٢ بتصرف .

(٢) السابق ٣٠/ ٣٤٣ بتصرف .

من شأن العطاء ، وهذا ما تتميز به سورة الفجر ، فوق أن ما فى سورة الفجر جاء بطريق الحال المؤسسة ، التى لاغناء للتعبير عنها ، فهو رجوع مغمور بالرضا من المنادى والمنادى ، وهذا من أرفع المقامات وأشرفها ، ودراسة أسرار القيود عن المباحث التى لم تأخذ حظها من الدرس البلاغى .

﴿فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى﴾ جاء الأمر بفاء التعقيب ، التى تدل أن الفعل يقع بلا تراخ ، وهذا مما يناسب مقام الرضا (فى عبادى) ذكر العلماء أن الدخول فى عباد الله الصالحين جنة روحانية [1]، وأنها غير متراخية عن الموت ، وهذا جريا على ما ذكروه من أن المراد بـ (ارجعى إلى ربك) إلى جسدك وصاحبك ، واستأنسوا لذلك بما أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية عن ابن جبير قال : (قرئت عند النبى ـ ﷺ ـ **﴿يأيها النفس المطمئنة ..﴾** الآية ، فقال أبو بكر ـ رضى الله تعالى عنه ـ إن هذا لحسن فقال رسول الله ـ ﷺ ـ أما إن الملك سيقولها لك عند الموت [2]وهو ـ والله ـ وجه ، غير أنه لا يمنع أن يكون هذا فى الآخرة ـ إن شاء الله ـ لأن النعيم لا تتم لذته إلا بالرفقة الصالحة ، فقد ذكروا أن أرواح الصالحين كالمرايا المصقولة المجلوة ، فإذا انضم بعضها إلى بعض ينعكس إلى كل واحدة ما فى مقابلتها من الفضائل والكمالات ، فيكون ذلك الانضمام سببا لتكامل السعادات الروحانية .

ثم إن الدخول فى الصالحين هو أبلغ المنى عند المؤمنين ، ولو استحضرت آيات الذكر الحكيم فى هذا الصدد لأيقنت أن ذلك كما تكون عقب الموت ، يكون أيضا فى الآخرة قال تعالى : **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات**

---

(١) مفاتيح الغيب ١٦/٤١٦ ، الفتوحات الإلهية ٤/٥٣٦ روح المعانى ٣٠/١٣١ .

(٢) روح المعانى ٣٠/١٣١ .

لندخلنهم فى الصالحين ﴾ العنكبوت / ٩) ومعلوم أن عباد الله فى سياق السورة صالحون ، فالإضافة فى (عبادى) إضافة تشريف ومن ذلك أيضا قوله تعالى : **﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾** (المائدة / ٨٤) والدخول فى عباد الله الصالحين المتمنى الأعظم لسيدنا ـ سليمان ـ عليه السلام ، كما يدل عليه قوله تعالى : **﴿ فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين﴾** (النمل / ١٩) .

فهى جنة روحانية ، وبستان نورانى ، فاستئناس النفس بالجليس الصالح أعلى وأحب إليها من ذوقها الطعوم ؛ لذا قدم الجنة الروحانية وذكر الأمر إليها بفاء التعقيب ، لأنها أحب إلى النفس المطمئنة ، وألصق بمقام الرضا، ثم ذكر بعد ذلك الجنة الجسمانية بالواو ، لأن النفس الراضية المطمئنة إلى الأولى تائقة وبها عالقة ، إذ إليها مطامح أبصارها ، وبها مطالع سرورها.

وهنا حط المعنى رحاله ، وقد أبصرت فى التراكيب ترحاله ، حين انبعث حثيثا كضوء الفجر ، وحين تحرك ساعيا بقصص الغابرين ، وعرج مهرولا على أحوال الإنس الطاغين ، وتحدر جريا بذكر أهوال الحساب ، وانتهت رحلته بتقسيم المحاسبين إلى معذبين ومنعمين ، والحمد لله رب العالمين وختاما أسأل الله أن يعفو عن زلاتى ، وأن يستر عوراتى ، وألا يكافئنى على قدر جهدى ، فكل جهد مع الكتاب العزيز هو جهد المقل ، وأسأله أن يجازينى بفضله لا بعدله ، وأن يجعلنى من عبيد الإحسان لا عبيد الامتحان ، فإن من نوقش الحساب أخذه العذاب .

وقد احتاط هذا القلم بفهم كلام الأئمة قدر الطاقة ، وبذل كل الوسع

فى سبيل فقه بلاغة السورة ، وإبصار حركة المعنى ، إذ هو ـ دوما ـ يستعيذ بالله أن يكون جريئا فى خط ما يفهم من كلام ربه ، ولولا محاولة علمائنا ما حاولنا ، ولولا شغفنا بمعرفة الإعجاز البلاغى فى الذكر الحكيم ما قاربنا الحمى، فغفرانك اللهم ، وعفوك اللهم .

ربما يدل البحث على العناء ، وهذا سر اختيارى سورة من القصار ، لأن إبصار هذا فى المفصل والطوال مما يقتضى وقتا وجهدا ربما يهيئه الله لى ـ فيما يستقبل من عمل ـ أو لغيرى ـ وآخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين ، وصل اللهم يا رب على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

١ ـ إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر المسمى بمنتهى الأمانى والمسرات فى علوم القراءات للشيخ أحمد بن حمد البنان بتحقيق د. شعبان إسماعيل ط . الكليات الأزهرية سنة ١٤٠٧هـ .

٢ ـ أحكام القرآن لابن العربى بتحقيق محمد على البجاوى ط بيروت بدون تاريخ .

٣ ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبى السعود ط دار إحياء التراث العربى ـ بيروت .

٤ ـ أضواء البيان فى تفسير القرآن بالقرآن للشيخ الشنقيطى وشيخه تلميذة عطية محمد سالم ط مكتبة ابن يتيمة سنة ١٤١٣ هـ .

٥ ـ إعراب القرآن وبيانه لمحيى الدين الدرويش ط دار ابن كثير سورية سنة ١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢م .

٦ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضى البيضاوى ط الحلبى ١٣٨٨هـ.

٧ ـ الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ط مصطفى الحلبى سنة ١٣٩٨هـ.

٨ ـ الإشارات والتنبيهات لمحمد بن على الجرجانى ت : د/ عبد القادر حسين ط دار نهضة مصر .

٩ ـ الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى ط صبيح سنة ١٣١٢هـ .

١٠ - بحر العلوم لأبى الليث السمرقندى بتحقيق الشيخ على معوض آخرين ط دار الكتب العلمية سنة ١٤١٣هـ .

١١ - البرهان فى علوم القرآن للزركشى بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ط دار التراث .

١٢ - البرهان فى تناسب سور القرآن لابن الزبير الثقفى بتحقيق د . سعيد الفلاح ط جامعة قار يونس سنة ١٩٨٨م .

١٣ - البحر المحيط لأبى حيان ط دار الفكر سنة ١٣٩٨ هـ .

١٤ - تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ط عيسى الحلبى .

١٥ - تفسير جزء عم للإمام محمد عبده ط دار الشعب الثانية .

١٦ - تفسير المراغى للأستاذ أحمد المراغى ط دار إحياء التراث العربى بيروت بدون تاريخ .

١٧ - تناسق الدرر فى تناسب السور للسيوطى تحقيق أحمد عبد القادر عطا ط دار الاعتصام

١٨ - التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم ط مكتبة المتنبى.

١٩ - التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ط الدار التونسية سنة ١٩٧٢م.

٢٠ - الترجى فى آى من الذكر الحكيم بحث منشور بحولية كلية اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٩٧ د. إبراهيم صلاح الهدهد .

٢١ - التفسير البيانى د. عائشة عبد الرحمن ط دار المعارف سنة ١٩٧٧م.

٢٢ ـ جامع البيان فى تأويل آى القرآن للطبرى ط الريان سنة ١٤٠٧هـ.

٢٣ ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ط دار الغد العربى ثالثة .

٢٤ ـ حسن الصنيع للشيخ محمد البسيونى البيبانى ط التقدم العلمية سنة ١٣٩٢ هـ .

٢٥ ـ حاشية الدسوقى على مختصر السعد ضمن شروح التلخيص ط السعادة ١٣٤٢ هـ ثابته .

٢٦ ـ حاشية الصاوى على تفسير الجلالين ط دار الفكر ١٣٩٧ هـ .

٢٧ ـ حاشية الشيخ زادة على تفسير القاضى البيضاوى ط دار إحياء التراث العربى بدون تاريخ .

٢٨ ـ حاشية المنياوى على شرح حلية اللب المصون ط/ مصطفى الحلبى ١٣٥٧ هـ .

٢٩ ـ خلاصة المعانى لمحمد بن الحسين المفتى تحقيق د. عبد القادر حسين ط الناشرون العرب .

٣٠ ـ دلالات التراكيب د. محمد محمد أبو موسى ط. وهبة ثانية سنة ١٤٠٨هـ .

٣١ ـ روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى لشهاب الدين الألوسى ط بيروت سنة ١٤٠٥هـ .

٣٢ ـ السراج لمنير للخطيب الشربينى ط دار المعرفة بيروت ثانية بدون تاريخ .

٣٣ ـ علاقة المطالع بالمقاصد فى القرآن الكريم دراسة بلاغية نظرية تطبيقية للباحث إبراهيم صلاح الهدهد مخطوط تلبية اللغة العربية بالقاهرة .

٣٤ ـ عناية القاضى وكفاية الراضى للشهاب الخفاجى ط بولاق .

٣٥ ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى بهامش تفسير الطبرى ط دار الريان سنة ١٤٠٧هـ .

٣٦ ـ فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير للقاضى الشوكانى ط دار الفكر .

٣٧ ـ فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ط دار الشروق سنة ١٤٠٦هـ.

٣٨ ـ الفتوحات الإلهية للشيخ الجمل ط عيسى الحلبى

٣٩ ـ الفوائد المنسوب لابن القيم ط الريان سنة ١٩٨٧ م .

٤٠ ـ الكتاب لسيبوية بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ط دار الكتب العلمية نشر الخانجى سنة ١٤٠٨هـ .

٤١ ـ الكشاف للإمام الزمخشرى ط مصطفى الباب الحلبى سنة ١٣٩٢هـ.

٤٢ ـ مسائل الرازى وأجوبتها أو النموذج الجليل فى أسئلة وأجوبة من غرائب آى التنزيل ط مجلة الأزهر سنة ١٤١٠هـ .

٤٣ ـ مجمع البيان للطبرسى ط دار المعرفة بيروت سنة ١٩٨٨ .

٤٤ ـ مشكل إعراب القرآن لمكى بن أبى طالب القيسى بتحقيق د. حاتم الصالح الضامن الرسالة سنة ١٤٠٨هـ .

٤٥ ـ مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعى بتحقيق د. محمد عبد السميع حسنين ط الرياض سنة ١٤٠٨ هـ .

٤٦ ـ مفاتيح الغيب للرازى ط دار الغد العربى سنة ١٩٩٣ .

٤٧ ـ من أسرار التعبير القرآنى (تفسير سورة الأحزاب) د. محمد محمد أبو موسى ط وهبة سنة ١٩٩٦ م .

٤٨ ـ مفتاح العلوم للسكاكى بتحقيق نعيم زرزور ط دار الكتب العلمية ١٤٠٣ هـ .

٤٩ ـ المحرر الوجيز لابن عطية تحقيق المجلس العلمى بتارودانت بدون تاريخ .

٥٠ ـ المصباح لبدر الدين بن مالك بتحقيق د. حسنى عبد الجليل ط. مكتبة الآداب بدون تاريخ .

١ ـ المطول لسعد الدين التفتازانى ط تركيا .

٥٢ ـ مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط بيروت سنة ١٤٠٧ هـ .

٥٣ ـ المفردات للراغب الأصفهانى بتحقيق سيد كيلانى ط مصطفى الحلبى سنة ١٩٦١م .

٥٤ ـ نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى ط دار الكتب العلمية سنة ١٤١٥هـ .

٥٥ ـ النظم الفنى فى القرآن للشيخ عبد المتعال الصعيدى ط مكتبة الآداب .

٥٦ ـ الناسخ والمنسوخ لأبى جعفر النحاس ط مصر سنة ١٣٢٣ هـ.

فهرس الموضوعات

